881

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
JOHN M. OLIN LIBRARY
ITHACA, N.Y.

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 068 244 098

OLIN
PJ
7804
M28
Y3

لجنة النشر للجامعيين

يوم كيوم عثمان

عبد الفتاح عبد المقصود

لجنة النشر للجامعيين

لجنة النشر للجامعيين

يوم كيوم عثمان

عبد الفتاح عبد المقصود

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي باشا

دار مصر للطباعة

٤٠ شارع كامل صدقي (الفجالة)

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY

اللقاء

شبا إلفين . وقطعا من مراحل العمر أعواما لينة ، كتفها إلى كتفه ، وكفها فى كفه ، لا يفترقان لحظة من زمان كأنهما الصوت وصداه والأصل وصورته فى المرآة ... كانت له رفيقة الطفولة الندية ، وأنس الصبا العزيز ، وأمينة السر والنجوى حين أينع الشباب وتفتح زهره ونواره .

الحياة كلها فى جانب وهما فى جانب . والدنيا حانية ، فلا هم ولا أوصاب ، تتلقاه دائما مفتوحة الذراعين باسمة الثغر متألقة العين فكذلك ترسمها له الشباب ! . . . أفكان يعرف الألم ولما يكابد من الأيام قسوة وتجربة ؟ أم يطعم الصاب وهو الذى صدف عن مرارة الحقائق — التى لاتنى تشمرها دوحة زمنه — وراح يتذوق أحلامه ؟ بل حياته كلها رخاء فى ظلال أخيلته . وإن الشمس نفسها لتعنو له — تسكب من ذهبها على فتاته ثم تعيره من شعاعها الدفىء ما ينسجه بردا ناعما يلف جسدها الرقيق فى طلعة الصباح المقرور ! . . وإن الليل ليسعى إليه : على جناحه السكون والخلوة والظلمة تخفيهما عن العيون والظنون ! . . . وإن النسمة لتتحدث لها بشجوه : همساتها الفاترة تحمل إلى سمعها شوق فؤاده قبل أن ينطلق

لسانه ببثه ونجواه ! . . . وهذه الأنجم الزهر فى الأفق العالى ، وقطرات الندى المتلألئة على أوراق الزهور البرية المنبثة بين الأطلال فى وادى الرمل — إنها لجوهر ودر ، يجمع حباتها ثم ينتظمها فإذا هى حول جيدها عقد وفوق مفرقها تاج ! . . .

ولم تكن فحسب ملء سمعه وعينيه ، بل قد كانت تعيش فى رؤاه كما تعيش فى رؤياه . . . هى فى النفس الذى يردده صدره ، وفى الخفقة التى يدب بها قلبه وينبض نبضة الحياة . . . هى الفكرة التى لاينى عقله ينشئها بين كل لحظه وأختها من لحظات تفكيره ثم ينشىء ويعيد ولا يمل الإعادة ولا التجديد . . . هى شاغله : شاغل آماله ، وشاغل خياله ، وشاغل حواسه وأوصاله ! . .

* * *

كذلك عرفها ، وكذلك كانت له « أسماء » طوال عهود الطفولة الندية والصبا الباكر والشباب الغرير . وعلى مثل هذا النحو من الرسم صورتها ملاحمه . . . أفهى التى هزت نفسه بدء الأمر فأيقظت ملكة الشعر الهاجعة على عرشها فى أعماقه ؟ . . أم قد مست قلبه من حبها اللهم بريشة سحرية حركت أوتاره فبعثت حنينه فى الآفاق ألحانا حلوة تأسر النهى والخواطر وتملك القلوب والمشاعر ؟ . . أم الحب فى فؤاده نمير تفجر ينبوعه عن نظيم رقراق عذب فوردته روح الفتاة الهيمى إلى رحيق عاطفته ؟ . . هو لا يدرى أى هذا قد كان . فما الصلة التى وثقت بينها

وبينه بنت أيام أو أعوام . إنما يشعر أنها قديمة ، غائرة فى الغابر ، تسبق العمر ! . . وشعر الغرام الذى احتوى ذوب نفسه وناجى « أسماء » لم يكن أيضا وليد ساعة بعينها من حياته . ليس يذكر متى قال فيها بكر قصيده ، فنهاره شعر ، وليله شعر . . . بل الهمسة يتلقاها سمعها منه حين الخلوة مقفاة . . بل نظرة شوقه ، تنقلها إليها عيناه ، بيت هوى تكافأ شطراه ! . . .

وبقى زمانا يملك الوجود كله وفتاته إلى جواره ، فما يعنيه إلا أن يهتف ببثه وتصغى إليه . أو يجلس وإياها فى ظل مضرب ، وقد انفض السامر ، ليشهد كيف ينعكس وهج خديها على بقايا النيران ! . . أو يترسم آثارها فى البكور إلى الربوة المشرفة على مواطن الكلأ حيث يجدها قد استرخت فى أشعة الشمس وسمعها إلى نغم الناى يترنم به أحد الرعاة من بعيد . . . كانت هذه هى حياته ، وكذلك سارت به زمانا ، عمره كالسويعات ، فى ترفق ودعة حتى حسب أن قد أمن الدهر وحالفته المقادر .

لكن فترة الصفو دائما أمدها قصير . . هى الحلم الهانىء الوادع تعقبه اليقظة التى تفتح العين على سوآت الواقع . . هى ومضة البرق تلتمع لحظة ثم بعدها ظلام . وحينما مر الحادى ، تلك الليلة الصافية من ليالى الربيع ، مجتازا ديار « مالك » ، وعلا صوته بأغنيته ، ومضى الركب تلقى عيسه البيض ظلالا متذائبة على رمال الصحراء ، ملكت هزة الفخر نفس الشاعر الشاب ، وأوشك الفضاء الرحيب أن يضيق بفرحته . . .

كان الحادى يغنى :

النشر مسك والوجوه دنا
نير وأطراف الأكف عنم
والدار وحش والرسوم كما
رقش فى ظهر الأديم قلم

وكانت البادية فى هدأة الليل تنصت ، والكواكب والنجم ، ونسمة الربيع الرخية . ولم يكن يجاور الفتى — غير فتاته — إلا ظله الخافت ، قد مده ضوء القمر عند قدميه . ولم يكن شىء يشغل نفسه قبل هذا الحداء الرقيق سوى ثغر أسماء ، وعينيها اللتين فترتهما العاطفة ، وخدها المستدير كالبدر . وكانت جدائل شعرها الفاحم تؤلف حول وجهها هالة لها من المسك لونه وشذاه . ومحياها النضر يلتمع فى الظلمة السابغة التماعة دينار . . .

ومدت بنانها فداعبت خصلة من شعره حركتها نسمة عابرة . فيالسحر مسها ! . . ويا لفتنتها ! . . أمن خضاب توردت أم كستها الطبيعة المبدعة لون العناب ؟ . . ويا لهذا الحادى الذى ترنم بمحاسنها كأن قد شهدها فجعلها أغنيته !

بل قد رسم أيضا فى غنائه وحشة الحى كأنما شاركها خلوتها بعد أن مضى السامر وخمدت النار . ولولا أن الشاعر أسعفته ذاكرته للعبت الغيرة بقلبه وزلزلت كيانه . لكنه ذكر . . . لمح أمام ذهنه قبس هتك ستر النسيان فإذا هناك وادى الشعر تخطر فيه عرائس إلهامه ، وإذا من بينها خريدة هى التى راحت تتردد بلسان الحادى فى سكون المساء . . .

إنه إذن بيانه ، نسيبه وتشبيبه ، آن أن تسرى به الركبان ويشدو الحداة فى البيد . ملك قصيده الأسماع ثم ملأ الأفواه فحق أن يفخر وأن يتيه . فما كان أعزها عليه من لحظة أوشكت أن تسطر اسمه فى سجل الخلود . وما أولاه بأن ينال الآن من إعجاب فاتنته وقد غدت بشعره كعرف الطيب يعطر الهواء ولألاء النور يشيع فى الفضاء ! . .

وهتف بها :

« أسماء ! . »

فهمست له :

« عمرو ! . . »

وتألقت فى عينيها دمعة . وماج صدرها ، ورجفت بنانها وهى تضغط على كفه . ترى أهذه سمات فرحتها وقد تعبر عن الهناءة الدموع ؟

وراح يتأملها برهة ، يغمر محياها الفاتن فى شعاع ناظريه ، ويلهب خديها بأنفاسه . . لكنها بدت عنه مشغولة ، قد تعلق بصرها بالأفق القاتم البعيد كأنما ترنو إلى ما وراءه . وكانت فى عينها حيرة ، وفوق جبينها الصافى عقدة من الهم ، وعلى ثغرها المتوتر شحوب .

وعندما مضت ظلال القافلة ، وابتلعت الرمال وقع أخفاف العيس ، وغاضت رنة الحادى فى منتأى بعيد ، وسع الشاعر أن يقرأ أحاسيس فتاته . فإذا بوجومها يعديه . وإذا فخره بعرائس خياله يذهب بددا . وإذا هو قد ود لو لم يكن قط فى الخالدين ! . .

لقد شبب بأسماء ، ونضحت بحبه لها ملاحمه . وحين يروى الرواة

فسيب شاعر وتشبيبه بفتاة ، فقد كتبوا عليهما الفرقة . . .

كذلك شريعة البيد ! . .

* * *

ليلتها لم ينم : زحمته في فراشه وساوس همومه ، فنبا به المضجع . . . ولم تطف به الفاتنة فى رؤاه : ردت طيفها عنه أشباح مثين من خصومه ومثين ، ليس يعرفهم ، وإن عرف أنهم أناسى لهم مثل قلوب الشياطين التى تنبض بالحسد وتحركها الشماتة . . .

ولقد عجب لهذا الليل كيف لا تغيب أنجمه ، ولهذه الهدأة التى شاعت فى جوانب السحر كيف ثقلت عليه حتى غدت كصمت المقابر ، وللصباح كيف لا يبزغ له من قبة الأفق شعاع كأنما الشمس نضبت فيها منابع الضياء ! . . ثم عجب أيضا لقومه ، ومن هذه الشرعة الباغية التى استنوها منذ قديم قضاء نازلا يقصف الحب ويدهم القلب والقلب ! . . لقد كانت الصحراء أبد الدهر تغرس الهوى ، وتتعهد نبته ، وتروى زهوره ؛ حتى إذا اشتد عوده الرطيب واستقام ، وأخضر ونور . وملأ الدنى بروائه ورياه ، مدت إليه البادية منجل العرف فقصفة ، ثم جلست تبكى بجانب الحطام ! .

وها هو الآن — هذا الفتى الذى حسب الزمان حالفه ، يوشك أن يصبح حطاما . وإن قلبه ليئن بين جنبيه ، وإن عينه لتشرق بالدمع خشية ما قد يجيئه به النهار . لكنه ، مع هذا ، لا يكاد يستبين عند حد الأفق لمحة من الضوء حتى ينفض عنه وهنه واضطرابه ، ويسرع

الخطا فى غبشة البكور نحو « عوف بن مالك » لعله يسبق عنده رواة الأشعار . . .

واجتاز الحى الهاجع بخفة النسمة ، ومر بخباء أسماء فلم يتلبث وقد كان من قبل محرابه . . . إنما هدفه الآن خباء سواء فيه سعده — لو شاء صاحبه — أو فيه شقوته إذا شاء . . . ذلك المضرب الكبير مأوى عوف سيد الديار . . .

ولقيه بالباب . . .

وكانت الكلمة التى وعاها من فيض حديثه الطويل الذى ألقاه : « عماه ! » . أما بقية كلامه فقد كانت رجعا لما يأمله قلبه . . . وهل بعد أسماء غاية ؟ . .

ورفع الشيخ بعد حين بصره إلى الفتى وقال :

« يا بن أخى ، حتى تعرف بالبأس . . . »

ثم عاد للمضرب الكبير .

* * *

عندئذ أمن عمرو جانب عمه ، فما يبدو أنه يضن عليه بالفتاة ، إنما رأى أن يرجىء زواجه منها حتى تصلب عظامه ويشتد قوامه ، فإن هو اليوم إلا غلام . . .

وعرفته البيد بعد ذلك رائدا حين الظلمة وحين النهار ، يذرع حزنها ووديها ، ويرود غورها وعاليها . عرفته مسارب الوحش ومسارح الطير وجحور الصلال والأراقم . . فتنه الخطر فتبعه حيثما كان ، واستهوته بمحنها

الغمرات كأنما ينشد فيها حينه ، والمصرع عزيز والعمر طويل ! . .

وغدا العاشق الصغير وقد ترك وراءه دنيا الدعة واقتحم على الهول معقله . وضع القلم ورفع الرمح ، وتحدث في يده سيفه بغير حديث الهوى والمناجاة ، فما هو اليوم بمفتون إلا بالبأس يتزود بأسبابه وبالخطر يلوذ برحابه . . . حياته بين الصليل والصهيل ! . . .

لكن ملكة الشعر لم تهجره . ظلت أبداً تظله بجناحيها ، في الوغى كما في السلام . وبقي فيض إلهامها يملأ أيضا أودية الدم التي ضربت في جنباتها حوافر فرسه وجال حسامه ينثر المصارع ! . . وإنه ليصول صياله ، ويغير فيشخن ويقتل ويظفر ، حتى إذا خمدت برهة وقدة الحرب مال ناحية عن الحومة ينفرد بأخيلته ليرسم صورة من الفروسية تسير في ركاب كل غاد ورائح كما سارت قبلها ملاحم غرامه . . . أليس قد أسمع الناس أنباء حبه ؟ . . فليسمعوا منه أنباء حربه ، وليسمع عوف ! . . ولتجر بشعره في القتال رواية الرواة ورنة الحداة في منزل الحضر وفجاج البيد . . .

ويهز عمه ذات يوم رأسه ، عن رضا وإعجاب ، وهو يردد لنفسه ما جاءه عبر البادية من قول ابن أخيه :

فما شعر الحي حتى رأوا
بريق القوانس فوق الغرر
فأقبلتهم ثم أدبرتهم
وأصدرتهم قبل حين الصدر

وتأتلق حينذاك دمعة بعين أسماء ، فما تدرى أمن أسى على فتاها وخشية إذ راح يلقى بنفسه بين فكى الخطوب ، أم من فرحة دمعها ابتدر وقد كادت المنايا تقربهما معا من أمنيتهما المحببة . غير أنها لا تزال تحس بشوقها الجامح يلح عليها ويهز فى قلبها هواها الحبيس إن هى أنست للذكرى أو شدا فى الفلاة المبسوطة حاد ينشد أغاريده . لكن الليلة تعقب الليلة والنهار يتلو النهار والغائب الحبيب لا يؤوب . . . وهاهى الربوة تنتظره ، والخلوة ، ومجلس العشب . . . وهاهى هدأة السحر وأشعة البكور . . . والراعى أيضا ، على الكلأ الأخضر ، يبعث نايه ترنيمة الحنين . . .

* * *

ثم آب الراحل من بعد غياب . . . الآن فى ناظريه جمرة البطش وفوق ثغره صلابة العزيمة . لكن « رسوله » مضى قبله يطرق الحى على ساكنيه ويبثهم من مشاعر فؤاده ما قد هاجه ذكر أسماء — مضى قبله قريضه ، العامر بوفائه ، الناضح ببرحائه ، يسرى كنفثة النسمه الوانية ذات أمسية حارة من ليالى الربيع :

أغالبك القلب اللجوج صبابة
وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه ؟
يهيم ولا يعيى بأسماء قلبه
كذاك الهوى إمراره وعواقبه .
وأسماء هم النفس إن كنت عالما
وبادى أحاديث الفؤاد وغائبه

وتبع « رسوله » فعاد والضحوة . . .

كانت شمس عهد الطراد قد لوحت منه بشرته فاكتسى إهابه بمثل لون الليوث ، والشقة الطويلة إلى الحى جللت بالنقع ملامحه الشم ، والعرق المنثال من وقدة الحر بلل قسماته فغدا كتمثال فارع لم يجف بعد صلصاله . . .

وعندما اقترب من ربوة الذكريات ، وهمت خواطره ومشاعره أن تسبق إلى الحى أوصاله ، لاح له فى الشعاع شبح قادم من جانب المضارب يحث نحوه خطاه ، ثم بدا آخر يسير فى ظله . . . ولم يكن ثمة شىء يقسر الشاعر على أن يلقى همه إلى السائرين تحت ظلة النور ، لولا أن هاتفا بقلبه دعاه أن يفعل فآثر الريث والتمهل . . .

فإن هى إلا لحظة حتى طالعه أخواه : حرملة وأنس ، يسرعان صوبه وقد بدت فى مشيتهما اللهفة ، وانتثرت حبات العرق على جبينيهما تنبىء بالجهد كأنما علقا راحتهما باستقباله .

وهتف بهما وقد قارباه . لكن السهوم على وجهيهما رد رنة الفرح التى أوشكت أن تنغم هتافه . . . وهتف ثانية وقلبه القلق على طرف لسانه . . . ثم هتف أيضا ثالثة وفى صوته وجمة محاذر .

وحين استطاع الفتيان أخيرا أن يدعا الصمت ويكشفا عن خبيئة الأمور ، كان هو كالذى داهمته صاعقة . . . غير أنهما عالجا جموده ببعض التسرية ، واستنهضا جلده ، واستجمعا له نثار صبره . . . وإلى سفح ربوة ذكرياته قاداه ، ووسدا له مجلسا على الرمال الندية ، بجوار

قبر جديد سقاه الطل — حقيق بأن تبله الدموع ! . .

* * *

هاهنا الآن مرقده ، بجانب الرمس الذى أعلماه أنه احتوى جماع آماله . هنا بيت له فى الفلاة ، بمدرجة الريح ، تحت أعين النجوم السواهر ، فيه محياه وفيه مماته . . وعندما ينفصل عنه شطر عمره الذى مازال يباعد بينه وبين الموت ، فلن يعوزه حينئذ الرامس الذى يزفه إلى أسماء . . .

ولقد مضت به الأيام فى ونى وبطء وهو إلى جانب اللحد مقيم ، لا ليل له ولا نهار ، لا غفوة ولا صحوة . . . إنما ساعاته حتم موصول حين الظلمة وحين الضياء ، تملؤه الحبيبة الغائبة . وروحه فراشة حائرة تحوم دائما حول ينبوع النور الذى يند عن ذكرياته . وقلبه الذى هده الوجيب ناسك فى محرابه لا يني يرتل أناشيد ألمه . . .

وكانت القوافل تمر به يترنم حداتها بأهازيجه فلا يلقى إليها بعينه وإن كاد سمعه يلقف من النغم بعض أصداء ماضيه . . . وكان الرعيان يهشون عنه الغنيمات التى تألفته ومرغت خدودها فى راحتيه آنسة ، ثم يثنون بكلمة رثاء رقيقة فلا يبالى بعطف الرعاة أو ثغاء الشياه . . . والصبايا الحسان قد يتخذنه مزارا ففى نظراته الساهمة نبع للهوى عميق ودت لو ترده قلوبهن الهيم ، وعندئذ فحسب يلتمع بصره إذ يرى فى الملاح طيف أسماء — يراها فى الطرف الفاتر ، والخد الناعم ، والفرع المسترسل الفاحم . يراها كذلك فى إشراقة اليوم وغروبه ، وفى خطرة النسمة

الوسنانة ، وتألق الندى على العشب والعود . . . فى لمحة الحسن يراها ما ازينت له الطبيعة وأبدت من روائها بعض آياته . وإنه ليحس أنها بقربه ، لم تبعد عنه . وأن نبأ موتها كمثل غيمة فى سماء حبه ، عابرة ، مآلها إلى زوال . . . هو لا يؤمن — ولن يستطيع — أنها غدت فى الغابر الذى تعيى دون لمحه العيون النواظر ، وتحار فى إدراكه العقول والخواطر . . . لا يؤمن ، ولا يستطيع ! . .

بقيت دائما ماثلة فى باله ، طوال الليالى والأيام ، حلوة ريانة كزهرة الصباح . . . وهاهى الضحوة قد امتدت فبددت عنه الظل وغمرته بالنور . .

هاهى النسمة أيضا تنقل إليه عبير زهرته . . هذه رنة الناى كأنها نداؤها الشجى يدعوه . ولثمة الغصن للغصن حفيف ثوبها بثوبه . ودفء الشعاع بعض أنفاسها على وجنتيه ! . .

هى الآن فى جواره — هذه اللحظة الساكنة من وقت الضحى أتت بها على جناح حلمه . . . إن وجهه قد نفض شحوبه ، وثغره اصطبغ بفرحة قلبه ، وأهدابه استرخت على وجنتيه فى تفتر واستسلام . . . أفهو خدر العناق يتملك جسده أم مذاق قبلة حانية أبرد حنينه ؟ . .

لكن عمر اللقاء كان كارتداد طرفه . كان أقصر فى حساب شعوره من عشرة الصبا التى لم تطل أجلا عن لمعة البرق . . . انقضى اللقاء ولما يتم ، وتبدد الحلم وياليته اتصل بالأبد الآبد ولم تصح عيناه ! . .

وتحرك فى مرقده على الرمل . ومد بصره جانبا وراء القبر حيث تلك

الضجة التى أفسدت عليه رؤياه وأعادته إلى اليقظة . . . كان ثمة غلامان قد اشتجرا ثم أوشكا أن يفيئا إلى وئام . وكان وهن الشاعر يرده أن يعصف بهما فآثر أن يأخذهما باللين حتى يدعا محرابه وينتجعا لنفسيهما جانبا آخر من البادية لا يجيئه منه ضجيجهما لو عاودا الشجار . . .

وهم أن ينهض فإذا صوت صبى منهما يحدث صاحبه :

« هنا فاحفر . . . »

وأخذا ينبشان فى القبر ناحية . . .

عندئذ تزود عمرو من فزعته بقوة دفعته يصيح :

« ياويح لى ، ما يصنع الغلامان ! . . »

فلعل الوهن فى بدنه ونبراته أغراهما ألا يخافاه . فقد مضى أحدهما وما بدأ فيه من نبش القبر ، وأبرز الثانى له قطعة صغيرة من العظام وقال :

« هذا كعبى ، نازعنيه صاحبى . »

فمحت براءة الطفل غضبة الشاعر ، حتى لقد تحدث إليه فى هدوء :

« كأنه أضاع كعبه فى الرمال فراح ينشده ؟ . . »

« كلا . بل قد نبش عسى أن يقع لنفسه على جديد ، فهاهنا دفن أبى رفات شاة ! . . . »

* * *

يغفر الله لحرملة ! .

لقد كان هو صاحب هذه الخدعة التى عاش عمرو فى ظلامها إلى يومه حتى هتك عنها النقاب طفلان يشتجران . . .

ويغفر أيضا لأنس مثيل ما غفر من ذنب أخيه . . . ولهما معاً من الشاعر عتاب لاتحفه موجدة ، ولوم رفيق لا يشوبه خصام . . .

خدعاه وهما يحرصان أن يبقيا عليه الحياة . أشفقا أن يودى به نبأ زواج أسماء أثناء غربته ، فرأيا أن يعالجاه باليأس من لقائها ، واصطنعا لها الموت ، ودفنا العظام وأقاما عليها الركام . . . واليأس على أى حال إحدى الراحات . . .

أما الآن فقد ذهب وناه ، وذهبت الرقدة الحالمة عند حافة القبر الخادع ، وذهبت من عمره حقبة من عيش هو الموت ومن هلكة هى الحياة ! . . كيانه كله أضحى قلبا يهزه الحنين ، وعينا يملؤها الدمع ، وروحا تحررت من محيط الغابر وتطلعت إلى الغد . . . نفض عن نفسه سطوة الذكريات وعاد يتنسم الأمل كحال الأحياء . . .

ولكنه لم يغفر قط لعوف . فهذا الأب العنيد الذى أضله جشعه ، وأذلت نفسه حماقات العرف الموروث ، ليس حقيقا عنده بغفران . غير أنه غدا اليوم بعيدا عن ثأر عمرو وعن قصاصه . . هجر الحى وخرج بماله ورجاله بعد أن أسلم ابنته زوجا لثرى من «مراد» أمهره فيها مائة من الإبل ثمنا لها وثمنا لحيانته عهد ابن أخيه . . .

ولم يطل من بعد بالشاعر مقامه ، فقد محا حبه الذى كان هاجعا فى جنبيه وراح يحثه أن يشد الرحال إلى واد وراء الجبال والمفاوز ، بعيد عن العين ماثل فى الخاطر ، قد سرت فيه أنفاس أسماء . . . ولم يكن ببدنه غير بقية من دماء خلفتها له ليالى الفرقة التى تفرد فيها بآلامه تحت لمعة

النجم على منبسط الرمل فى ضيافة الريح ! . . لكن قوة القلب كانت حسبه . وإنها لطاقة تستطيع أن ترد به الكواكب العلية لو سكنتها فاتنته ! . .

وبعث مع الفجر إلى وليدة له كانت وفية موالية ، وإلى زوجها « العقيلى » وكان عسيفه يرعى شياهه فى الزمان القديم . . إن عهد الزهادة الذى اجتازه الشاعر فى شطر عمره الأخير لم يبق على شىء غير ثوبه فراح يلتمس عند الزوجين بعض ما يعينه على الرحيل .

وكذلك خرج ثلاثتهم قبيل الضحوة من يوم بارد مطير ، تضرب بهم رواحلهم بين وهاد البادية وروابيها إلى حيث وادوراء الجبال يانع عطرته أنفاس أسماء . وإن الرحلة مضنية ، والزاد قليل ، والمدى طويل . . . وإن الرمق الباقى من روح الشاعر لايكاد يمسكه إلا أمله — يكفه أن ينضب طوال الأيام والليالى التى قطعها بين الركب على ظهر راحلته وهو أدنى فى ذبوله ووهنه إلى عود جاف . وإن الزمن ليمر وما زال الوادى العاطر بعيدا عن عيون العقيلى والوليدة . . . وإن القافلة الصغيرة لتصل الأمسيات بالنهر والغاية نائية والقصد بعيد . . وإن الشمس لتنجب والظلمة تنجب والركب سابح فى لجة من الرمال لم يتبين له بعد مرساه ، فلا الليل مبلغه هدفه ولا النهار مبلغه ، كأنما كان يمضى إلى سراب ! . . .

* * *

أما العاشق المشوق فلم يلق بالا إلى الزمن . حسبه أن يعلق باله بمنزل أسماء . . . هذا خيالها فى سراه يهديه ، وهذه ريحها تؤرج أجواءه ،

وها هى الظباء سوارح أوانس على منبسط الرمل من حوله كأنها طير الماء يبشر بشاطىء الأمان ! . . .

لكن رفيقيه لم يتلقيا الأمر كما تلقاه . فالمشقة بالغة ، والجهد موصول ، وبرد الصحراء يدق على بدنيهما الجلود ويكاد أن يشق العظام. ولو كان رفيقا بهما فأباحهما بعض الراحة فربما أطاقاه . ولكنه كان دائما موكولا بغده يود لو يسبق الزمن إليه — لأن الغد رقبة الآمل — فحملهما بلهفته عسرا ناء به الجلد والاصطبار . . .

وحمل أيضا نفسه ما ليس تطيق . بدنه الواهن أوشك التعب أن يعتصر بقية مافيه من الحياة . . . كاد الزيت أن ينضب من السراج . . . الشعلة الذابلة همت بالانطفاء . . .

ثم كانت ليلة عاثت بها الريح ، بردها صقيع ، وقد لاذت القافلة الصغيرة بكهف إلى جانب الطريق يدرأ عنها غضبة الطبيعة . . . وكانت الظلمة سابغة تلف الفضاء وتلقى بظلها الداكن على مأوى الركب . . . وكانت ولولة العاصفة تزلزل الصحراء ثم تردها جدران الغار أن تردد صداها فيه . .

وشاعت فى جو الكهف أثارة من الدفء بعثتها الأنفاس فأغرت العيون بالنوم . لكن العقيلى لم يغفل ، فالراحة بعد كل هذا الإعياء حرية بأن تقض عليه مضجعه . إنما مد سمعه يمنة إلى الشاعر يحاول أن ينصت إلى تردد الحياة بين جنبيه . . . ثم مد فمه يسرة وهمس لامرأته . . .

وفزعت الزوج . لقد كانت تعالج النوم وإنه على عينها عصى عزيز ، حتى إذا أوشكت أن تروضه وتتألف جماحه طردته الهمسات . . .

وعاد زوجها يهمس فى عناد وإصرار . . . وأحست بجسدها ينتفض . وبقلبها تعتصره يد الجزع وتفريه . وبعينها تذرف الدموع . .

ولم يكف عنها العقيلى ، بل ضغط عضدها بقسوة ، وقرب من أذنها فاه :

« لن نهلك معه . اتبعينى مع البكور أو أدعك وإياه ! . . »

وكانت فى صوته رنة نذير . . .

* * *

وفى عماية السحر تركاه لقدره فى جوف الكهف ولما يفق . تركاه وديعة قد علما أن أصابع الموت توشك أن تتقبض عليها قبل مطلع النهار . . .

وسارت بهما القافلة فى طريق العودة — فى طريقهما إلى الحياة . . .

فما أعجب أن يكون هذا الميت قد حكم عليهما بالموت قبل أن يغادراه . . .

وما أعجب أن يحملا معهما صك الحكم كما حملا الإثم . . . فلقد كان عمرو ساعة الهمس يقظان وإن أرقده وهنه ، فقابل الخدعة بخدعة ، ورد خيانتهما الصاع بالصاع ! . . .

كتب على آخر الرحل عندما أسلما الجفون للوسن :

من مبلغ الأقوام أن مرقشا
أضحى على الأصحاب عبئا مثقلا ؟
يا راكبا إما عرضت فبلغن
أنس بن سعد ، إن لقيت ، وحرملا :
« لله دركما ودر أبيكما . . .
إن أفلت العبدان ألا يقتلا ! »

ومضت رسالته إلى حيث أراد . . .

وعندما دخلا الحى ولقيا أخويه ، اصطنعا أمامهما الحزن والفجيعة ، وقصا نبأ مصرع مصنوع ، وقبر بجانب الفلاة . . .

وتلفت حرملة والركب يسير ، فإذا هى اللفتة التى تحدد المصير ، وتنفذ فى الشقيين مشيئة الشاعر كما رقشها قلمه على أديم الرحل ، تلك الليلة العاتية الريح ! . . .

* * *

وكأنما شاء القدر لعمرو أن يبلغ وطره وإن أبى عليه صاحباه وخاناه . . .

فما هو أن سكنت العاصفة ، وأشرق النهار ، وأخذت موجات الدفء تشيع فى جنبات الفضاء المقرور ، حتى دبت الحياة على وجه الرمل ، وماجت الصحراء بالماشية والرعيان . . .

وانتبه الشاعر من إغماءة كاد وسنها يختم عمره ، فإذا بفم الغار حمل ناصع كأنه شعاع ، الرقة فى بدنه ، والصفاء فى غرته ، والطهر فى ناظريه . . .

ثم انتبه ثانية من إغماءة أخرى . فإذا الحمل آنس به ، يمرغ فى راحتيه وجهه . وإذا النهار فى جوف الكهف يتقلص ظله رويدا رويدا ، وتنتشر الظلمة فى آثاره خابية تنبىء بقرب ذهاب اليوم ووشك اقتراب الغد . . .

وإذا رنة ناى تنبعث فى هدأة الغروب ، وثغاء ورغاء ، ووقع الظلف والحافر على الصخر الصلد عند مدخل الغار .

ومد الشاعر المهيض عينه إلى ناحيه الصوت والدبيب لتلقى الراعى

الذى ينفث شجنه فى ثقوب الناى . . . ومد الراعى عينه تجول بالمكان عسى أن تستقر على حمله الصغير . . .

وعندئذ التقى الناظران . وفى رنة المبغوت هتف القادم وقد هزه مظهر الطريح :

« يا لهفتا ، هذا صريع ! . . »

لكن النفس الخائف الذى بقى يتردد فى صدر عمرو خفف عن الرجل بعض لهفته ، فاقترب يحاول أن ينجد العانى الراقد . . .

وجاهد عمرو حتى استطاع أن يهمس فى إعياء :

« فمن الرجل ؟ »

« عسيف لسيد من مراد »

فكأنما فجرت كلماته فى بدن الشاعر الواهن نبع الحياة ! . . هو إذن منهم — هذا الراعى الذى قاده حمل شارد ! . . أفقد ساقه الحظ على غير موعد ليتم رحلة عمرو ، ويصل به إلى كعبة غرامه ؟ . .

وإنه حقا منهم ، فهو راعى « المرادى » زوج أسماء ، وهو صاحب حلبه ، وهو — وإن حيل بينه وبين أسماء أن تراها عينه كما حيل بينها وبين غيره من رجال الحى وفتيانه — قد يسعه أن يحمل إليها رسالة من العاشق الطريح . .

وقال الشاعر وقد التمعت بالفرحة عيناه :

« يا أخا البادية . هذا خاتمى ، فنشدتك الله إن أتتك جاريتها تطلب الحلب الليلة ، أن تضعه فيه . . . »

وبات ليلته بين ظلمة الأمسية ، على صخر الكهف ، صاحى الواعية ، تترى أمام خاطره صور ماضيه . . كل ما اجتازه من مراحل العمر يعود إليه عامرا بحبه . . . لا ليلة ، ولا ساعة ، ولا لحظة إلا ملأتها رفيقة صباه . . . وإنه الآن ليلقاها — يلقاها قبل اللقيا ! . . وليود من قدره أن يمد له فى حياته فترة كلمح الطرف ليشهدها ثم يغلق على مرآها — إلى الأبد — جفنيه . . . هذه صورتها ، وهذه همستها ! . . خيالها السارى من وراء جدران غاره يناديه ، وصوتها يرن كترنيمة الناى فى مسمعه ، وحسنها يضىء حوله الظلمة . . . ما أضيق عمره على الرقاد ! . .

وهمست له فى خاطره آلهة شعره :

« سرى ليلا خيال من سليمى
فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال
وأذكر أهلها وهم بعيد
حواليها مها بيض التراقى
وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش
أوانس لا تروح ولا ترود
سكن ببلدة وسكنت أخرى
وقطعت الوثائق والعهود

فما بالى أفى ويخان عهدى ؟

وما بالى أصاد ولا أصيد ؟ »

لكنها لم تخن عهده ، ولم تنس يوما حبه وهواه . . . وإنها ليؤرقها الساعة مثل الذى به من الوجد ، ويلح عليها جواها حتى لتستعين بالحلب الدافىء ليجلب إلى جوارحها المتوفزة بعض الهدوء والراحة عسى أن يزور عينيها النوم . . .

وإذ ذاك يقرع شىء فى اللبن ثنيتيها فتنبعث متوجسة . هذا خاتمه ، رسوله الصامت . ولولا أن قد جاءها منه فى هذا الوقت الذى جرت فيه الأخبار بمحنة الشاعر لظنته بشراه ! . . لكن قبضة مثلوجة أمسكت بقلبها فأشاعت فى كيانها رعدة جعلتها تندفع إلى جاريتها تصيح :

« على بسيدك ! »

ثم لا تكون ثمة مهلة لريث حين يعلم المرادى من راعيه ، وتعلم هى ، نبأ الخاتم وقصة ضجيع الغار . . . لاتكون فى العمر فسحة لترجىء الأمر إلى إشراقة النهار . إنما تنتفض ، ويتملكها الهلع على صاحب صباها ، فتتوسل إلى زوجها وهى تذرف الدمع :

« إنه المرقش — عمرو ! . . فأعجل بالله . . . »

* * *

ويلتقى أخيرا العاشقان . . .

ويدير المرادى وجهه ناحية ليخفى دمعة تهم أن تفيض . . .

ويرفع الشاعر بصره إلى محياها ، ظامىء النظرات . . . ثم ترتسم

على ثغره بسمة فيها هوى وفيها — إلى جوار ضرام حبه — هدوء وسلام .

ويهمس على جناح أنفاسه الوانية :

« ورب أسيلة الخدين بكر
منعمة لها فرع وجيد
لهوت بها زمانا فى شبابى
وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلما أخلقت وصلا
عنانى منهم وصل جديد »

لكن هذا كان وصله الأخير الذى لن يعنيه وصل سواه . . .

فلقد أطبق على مفاتن حسنها جفنيه ، واحتوى فيهما رسمها الحبيب .

ثم حلقت ربة شعره ، إلى ملكوتها العالى ، تشرف منه على عالم الوجود !.

رحلة قلب

بأيهن يبدأ ، وبأيهن ينتهى ؟ . . . إن قلبه قلوب . فى كل واحد منها امرأة . بكل ركن منه . بكل عرق . بكل قطرة من دمائه ! . . صدره حين يعلو ويهبط تتنغم أنفاسه باسم حسناء . لمعات عينيه مرايا ترتسم فوقها مفاتن الغيد . . والظباء حوله ، فى مراتعها ، خيالات لعرائس هواه . . .

وكانت الرمال حمراء ، تتقد تحت قدميه كالجمر ، والشمس قد طوت ألوية الظل . وكان وهج الأشعة يكاد يذيب ما أبدى اللثام من وجنتيه ، ولفحة الريح الحارة تنشر ثيابه كالأعـــلام . لـكنه لم يمل بنفسه عن الدرب . . مضى وغايته بين مضارب الحجيج المنبثة فى الوادى الساكن كـكثبان الرمل . ولم يجنح أيضا إلى نجوة ظليلة ، بل انصب قدما كالسيل وسعير الهجير تنطلق حممه حواليه . . . وكان منساب الحركة ، ممشوق القوام كالرمح وخطاه تمتد امتداد عينه وقلبه إلى كعبة له هناك مبتغاة ، لعله أن يسبق إليها نسمة الأصيل . . .

أما الأبدان ففاءت إلى الخيام ، تحتمى خلفها بالظلال نأيا عن الذى خلفته وقدة الظهيرة . وأما العيون فوسنى ، مس النعاس أهدابها ليسلمها

للحلم ... وأما الشاعر . فلم يفترهمه ، ولا كل خياله أو استرخى باله . وإن بسمة خابية الضوء لتلعب على شفتيه ، ثم تشيع من سناها فى محياه وهو يرمى بلمح طرفه على الأخبية التى يغمرها النور . . . هذه بسمة المدل ، فيها اعتزاز وزهو ، وفيها خيلاء . . . وهل غاب عنه أن وراء كل قبة ظبية تلوك نظيمه ، أو تتعجل وسنها عسى أن يزورها طيفه فى المنام ، أو تعالج اللهفة فيغلبها قلبها المشوق فتمضى تمد طرفها إليه من خلال الأستار ؟ ...

هو من هذا على بينة ، وما يضنيه أن تتكاثر عليه الحسان ، فقلبه للجمال منهوم . غدا وغدون له شاغلا . ولو شام فى جانب من الأفق فاتنة لاعتلى إليها سحابة ! . . ولقد سمعن به فسعين إليه مثل سعيه إليهن ، واستنشدته وجالسنه . وحظى منهن بالفتنة الممنوعة على سواه وحظين بالذكر فى قصيده صورا لحسنهن ذات ألوان هى متعة ذهن من متعة عين . . . وإنه ليضرب فى الأرض إلى حيثما تهديه حاسته ، جواب آفاق ، بين رياض المدينة ، ومغانى الطائف ، وبطحاء البلدة الحرام ، كأنه جامع الزهر ود أن ينتظم باقة تضم من صنوفه كل بهيج نادر وشذى عاطر . حتى هاهنا ، والناس التأموا حول كعبة الله فى الموسم ، جاء يلتمس الجمال ويجتليه فى سفوره . وما كان لترده قداسة المكان أن يفعل ، ففى شهوده الأعين النجل ، وانعكاسة الشفق فوق الخدود ، واشراقة الحياة فى المباسم — تسبيح ! . . .

وهامس نفسه وهو يسير وعينه على القباب التى غطت أودية الرمل :

« ليت ذا الحج كان حتما علينا
كل يومين حجة واعتمارا ! . . »

ثم ضحك . فلقد ذكر اللحظة صاحبا له ، ما إن سمعه أول مرة جاهر فيها بأمنيته هذه حتى صاح :

« الله أرحم بعباده ، يا ابن أبى ربيعة ، من أن يجعل عليهم ما سألته ! . . »

* * *

لكنه سار سيره . ما كان ليعود وإن أخذت الظلال تلقى خيالاتها على الطريق المهجور ، وإن بدا له أيضا رائد هنا أو رائد هناك . لود فى البدء لوظل فى السبيل وحده وبقى الوادى — كما كان — للرقد النيام !.. غير أن الحركة التى راحت تنشط وئيدا على رماله حفزته ليبلغ وطره عسى أن يخالس المتعة ونخالسه فى غفلة من العيون التى أوشكت أن تذود النعاس . .

وتريث . . . وتفكر مليا وبسمة التيه لا تزال تلون ثغره . . . أيضرب عليها بابها ؟ . . أينشد فتأتيه على جرس الأشعار ؟ . . وما عذيره إن انتبه من أهلها مستريب ؟ . . لقد كان حريا به أن يجىء لموعدها والرقيب وسنان ساعة الغفوة لولا تلكم الصبايا الملاح اللاتى أطلعتهن عين الماء وهو يحث نحوها خطاه . . . وهل كان يسعه أن يمر بالحسن ثم تسترخى أهدابه ؟ . .

غيره يفعل ، أما عمر بن أبى ربيعة فحاشاه ! . . ولقد أصغى هنيهة لقلبه الهيمان ، ووقف على النبع ، وترجل عن فرسه يضاحك الزهرات اليانعة — إذ عرفنه — ثم مضى عنهن إلى هدفه وهو يرسم ذلك اللقاء العارض بريشة البيان :

بينما ينعتنى أبصـــرنى
دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : « أتعرفن الفتى ؟ »
قالت الوسطى : « نعم هذا عمر »
قالت الصغرى ـ وقد تيمتها ـ :
« قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ! »

فحق إذن ـ وقد وشت به سماته وقسماته لصـــبايا البادية ـ أن يعرفه أصحاب فتاته ذات السرادق الأحمر ! . . وحق أن يحذر ، لا من خشية ، بل لتمتد بها صلته وتتصل بينه وبينها الأسباب . فإن هى إلا ليلة ثم تمضى ، أو بضع أمسيات ، يبتلع ركبها بعدها طريق العراق . .

وكانت قبتها منه دانية ، تهم أن تلقفها عينه من خلال القباب . غير أنه آثر التمهل . . . لعله واجد معينه فى « بديح » يرسله لها فيبلغها أمره . .

وقال ، وقد تهلل بالبشر محياه حين وقع ناظراه على عابر الدرب بين الخيام :

« يا بديح . . . »

فانتفض الرجل المفجوء ، ثم هتف يعجب :

« ابن أبى ربيعة ؟ . . ويحك ، لكأنك طلع الشيطان ؟ . . »

« وكأنك هبة الصبا لإلف الرمضاء ! . . »

« وما تفعل فى هذا القيظ ، يرحمك الله ؟ »

« ما تفعله . . » ومد كفه تلمس موضع فؤاده : « إلا أن تكف عنه النـار ! . »

عندئذ مشت الريبة إلى جوار الدهشة فى وجه بديع ، وراح يحك هنيهة ذقنه كالمتفكر ، ثم قال :

« فقل حاجتك »

« لأنت الفتى ! . . إيت إذن بنت محمد بن الأشعث فأخبرها أنى قد جئت لموعدها »

« موعدها ! . . » ورفع يديه مستنكرا : « لاها الله ! . . مثلى لا يعين على مثل هذا ! . . »

« بديع . . . »

لكن نداءه الذى تردد خلف صاحبه لقى أذنا صماء . . .

* * *

ومع ذلك فلم يضق عمر بهذا الإباء ، ولا غاص قلبه الخفيف الطروب . وماذا يحزنه ؟ . . بهذا الرسول أو بغيره ، بحيلة أو أخرى ، لن يلبث أن يبلغ مأموله . . وليلقين الفتاة ليلته ، ويحادثها ، وينشدها من شعر هواه ما تستطيبه قلوب مثيلاتها من العذارى الملاح . فما تضيق المسالك بناشد الجمال إلا أن يضيق بالفراشة بستان ! . .

وحدثته نفسه أن ينسرب مع الزمر التى أخذت تكثر مع الظلال . . . وكان الأصيل قد رق نسيمه ، ووهج النهار قد راح هجيره يذوب فى أشعة الغروب . وكانت الأخبية قد انشقت عن ساكنيها من رجال وصبية وذوات أعين نجل دعجاء . وكان الطريق الساكن قد ماج بمواكب الحاج ، جموعا وفرادى ، يؤمون المسجد أو مشارفه للصلاة . . . أينما خطا ، وأيان سرح

به عمر يومه ، كان يرى الأعواد المعتدلة الممشوقة والقدود الطرية الرشيقة — لا سواها — فطرفه ضل إلا عن انتهاب فتنة النساء ! .

وها قد أقبل المساء وفؤاده نشوان ، عب من الحسن ورشف ، ولكنه غير ريان ! . . إن بكأس الجمال لبقية ، وطالب الهوى لا يزال يلتمسه مع البكور والضحوة ، يصل من أجله فجره بليله ، ويومه بأمسه ، وهو لا يمل ولا تخمد فى نفسه شعلة شوقها المشبوب . . . وكذلك كان عمر وظل ، وطال بقاؤه على تلك الحال . هو للحسن منهوم ، وبه مشغول . غاية حياته أن يعيش بين آياته ، ينعم ويحلم ، يقظان ونعسان ! . .

ومد أطرافه التى خدرها طول تطوافه ، ورد عينه الساهمة عن النجم الأزهر إلى الظلمة الكثيفة التى لفت فناء الخباء . . . ليكاد — وهو جالس هاهنا ، فى خلوة لا تملؤها عليه إلا خطراته — تزحمه عرائس هواه ؟ . . هن فى خياله يداعبنه ، الآن كمن قبل . . . «الرباب» تعابثه . يلقاها بشعر فتلقاه بسحر . ترد عليه أبياته منغمة — شدوا يملك على فؤاده أرجاء النشوة . . . و«هند» تتجرد تبترد تحت أعين جارات لها تسألهن إن كن يرين من فتنتها العارية مثل ماوصف قصيده ! . . و«زينب» تأخذها السماء ذات ليلة وهى معه بالشعب فيسترها من المطر تحت أثوابه ! . . و «كلثم» قد ظفرت به . ما كان أمهرها إذ تأبت عليه وردت نسيبه حتى تاقت نفسه إلى لقائها ، فلما سعى إليها احتجزته وغلقت عليه الأبواب ثم تزوجته ! . . . ثم كم من نسوة وفتيات غير أولئك وهؤلاء ترك فى حياتهن آثارا وتركن فى حياته . ولو قد أحصى لآده الإحصاء وأعياه فبحسبه بخلوته

هذه ، أن يذكر ويستعيد من صور حاضره وماضيه ما يجدد دائما فى فؤاده حرارة الشباب . . .

وذكر أيضا «رملة» . . . أم كان يسعه أن يغفل الذكر وقد طار غزله فيها إلى الطائف فأفسد مابينه وبين «الثريا» وأضواه ؟ . . فى «رملة» رأت عينه الفاحصة لونا من الجمال ضلت العيون دونه . قوامها الفارع كان أحدوثة ، وجسدها المفصل الركين كان بهجة للأبصار المشغوفة بالرشيق المشوق . لكنها ملكت وجها اضطربت له معايير الحسن ، فيه جهامة وضخامة ، يكتنفه أنفها العظيم ! . . ومع ذلك فقد حرك من عمر إحساسه الخاص بالجمال فقال فيه :

وجلا بردها وقد حسرته

نور بدر يضىء للناظرينا ! . .

وعندئذ غضبت الثريا وأنكرت عليه ذوقه ، وقالت عنه :

« أف له ما أكذبه ! . أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟ . . »

فلقد خشيت أن يراها الناس فى شعر الشاعر على ضوء وصفه للجهمة ! . . وإنها لحرية بأن تخشى ، فما تعز المرأة دون عرش الجمال وسلطانه . أم قد غلبتها الغيرة من منافستها فى قلب عمر فكان ما أسلفته من إنكار ؟ . .

فى الحق توطأ العذر للثريا حين غضبت مرة لحبها ومرة لفتنتها . فلم تكن رملة نوراء قمراء وإن طغت فى بدنها صولة الأنوثة . . . غدت زوجا لابن عبيد الله بن معمر فوقف يوما يدل بشجاعته فى حربه الخوارج

ويفخر ما شاءت له المفاخرة والازدهاء فإذا زوجه الثانية — عائشة ابنة طلحة — تبتسم وتقول :

« أنا أعرف لك من شجاعتك يوما هو أعظم مما تذكر وتستطيب . . »

فسألها ولما تفتر خيلاؤه :

« وما هو ؟ . »

« يوم اختليت رملة ، وأقدمت على وجهها وأنفها ! . . »

كذلك سبحت خواطر الشاعر على سيول ذكرياته ليلته تلك ، وهو جالس بفناء مضربه ، بعد تطواف يومه ، يرقب النجم أو يهيم بناظريه فى طوايا الظلماء . غير أن عرائس الهوى التى زارته فى خياله لم تبعدعنه وجها وسيما وادعا راح يطرق عليه أفكاره ، فى عينه المؤتلقة دمعة وفوق سيماه عتاب . . . إن فتاة ابن الأشعث لا تنى تستنجزه الموعد ، وهذا شبحها الرقيق يطل من خلال ذكريات أماسيه . والخلوة بها تنتظره . وحديثها الشهى . والقبة التى عطرتها انتظارا للقياه . . .

ولم يكن قد مضى من الليل إلا أقله . ففسحة الرفقة ممدودة إذن إلى الفجر . . . وكان قلبه المشوق لايهادنه ، ولايستنيم لجسمه للدعة والسكون. وشيطان خياله المعربد قد اكتسى جناحيه وحوم على المضرب الأحمر ، ومضت خرائد غزله تغرد عند خدر الجميلة التى التمعت على خدها دموع العتاب . . .

عندئذ نهض للسرى ، وقد انتقلت خفة فؤاده إلى جسده المفتر ،

فإن هى إلا ليلة ويقفل الركب عائدا على طريق العراق . . . وتلثم . وشد حوله أبراده . وخطت قدمه من الفناء نحو راحلته يعدها للمسير . . .

لكنه ثبت حيث قام . فقد أطلعت عليه الظلمة شبحا كالظلمة فى دثار وخمار ، لا تتبين العين منه إلا أثوابه . أقبل هادئا كالنسمة ، ليس له سوى حفيف خفيف . أما وقع قدميه فكانت تبتلعه الرمال . . .

وسمع الشاعر ، بعد لحظة ، صوتا نسائيا خشن النبرة يقول :

« أنت ابن أبى ربيعة ؟ . . »

« نعم »

« هل لك فى جلسة لم يشهدها حلمك ؟ . . »

فتريث هنيهة — من عجب — ثم سأل محدثته :

« أكرمك الله ، ومع من تكون ؟ . . »

« مع الحسن والشرف والكمال »

« بقلبى ! . . »

وكاد يطفر عجلة ولهفة ، لولا أن هتفت به :

« تريث ! . . ودعنى أشد عينيك . . . »

فاستسلم . ومضت به تقوده بين هدأة الليل . . .

* * *

أبرحاء الشوق ، أم الشقة ، أم هما جميعا أطالا عليه الطريق ؟ . . . فى حساب وهمه مضت به الساعات وهو يضرب بين سواد العصابة التى غلفت ناظرية ، وفى حساب عمره مضت لحظات . . . أما همه فكان عالقاً

بالجنة ، وإحدى الحور ، بجسد نور ! . . خياله لم يدع للواقع مهلة ليبرز إليه من خلال الأسجاف ، بل استبق يهتك الحجب عنه ويبدى لقلبه المشوق فتاة أحلامه ، رقيقة كالنسمة ، وادعة كالطيف ، ريانة كأنها باكورة زهرة رف على أوراقها ندى البكور . . وكان فؤاده يهيم بين جنبيه كالطائر يتنسم إلى روضه السبيل ، المدى يقصيه والحنين يدنيه . . . وكانت عينه التى ملأتها الظلمة ترى على هدى المشاعر . ولسانه الذى عقله سكونه قد نحل فكره قدرة البيان فتحدث شعره ورنمت أهازيجه — لكنه حديث ، اختلجت به نفسه المشغوفة الملهوفة ، كتمت أحرفه ورددت عواطفه ، صامت كنجوى العيون للعيون ! . .

ثم تمهل . كبحته عن مسيره رائدته تحت هدأة الليل . . . واضطرب قلبه ، واضطرم أيضا إذ هو الآن فى محراب الرجاء . وقبل أن تخطو به خواطره على مسرب ظنه ، وقدماه على البساط الوثير ، غدت عينه طليقة قد أغرقها وهج الضياء . . .

وطرف هدباه ، أمن هذا النور الذى عم المكان وغمر كل ما فيه ، أم السنا اللألاء يشعه المحيا الوضىء قد بهره وأعشى عينيه ؟ . . لفترة وقف مبهوتا فى محراب الفتنة أمام قدس أقداسه ! . . لا حركة ولا نأمة . حتى قلبه بدا كأنه كف عن وجيبه . وأنفاسه أيضا جمدت على أطراف شفتيه . بل ذهنه كذلك ، وخواطره السابحة فى آفاقه الفسيحة ران عليها كلها جمود عجيب . . .

واعترته هزة ، بعد حين ، أعادت إلى كيانه الحياة ، أحس منها

نشوة غامرة سرت فى فؤاده سريان السحر . . . لم ينجبها له الشعور بوجوده إنما الصوت العذب الذى داعب أذنيه . . . كان شدوا . كان مناغاة وتر مزهر لوتر قلب ! . . كان ترنيمة ناى يبعثها راع هانىء رخى البال لفتاته التى أقبلت عليه وفى ناظريها تلتمع فرحة الحياة ! . .

سمع الشاعر المبهوت رنة التغريد تقول :

« أنت عمر بن أبى ربيعة ؟ . . »

فأجاب مسلوب الصواب :

« أنا عمر . »

« أنت الفاضح للحرائر ؟ . . »

فغاص قلبه . ماهكذا يبدأ الهوى ويجرى حديثه ! . . . لكنه استطاع أن يرد الهيبة ويدفع الحيرة ثم يقول :

« جعلت فداءك ، وما ذاك ؟ . » .

«ذاك وشى به إلينا قريضك. فجرت والله ! . . أم لا ، فخبرنى ألست القائل :

قالت : «وعين أخى ونعمة والدى
لأنبهن الحى إن لم تخرج . . »
فخرجت خوف يمينها ، فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تحرج
وتناولت رأسى لتعرف مسه
بمخضب الأطراف غير مشنج

فلثمت فاها آخذا بفروعها

« . . . . . »

ولم تتم . إنما علقت بصرها بعينيه وفيه نظرة غضبى ، وعلى جبينها عبسة عقدت مابين حاجبيها ، ثم لوحت بيدها نحوه فى سأم كأنما تنفض عنها شيئا تأباه ، وصاحت به :

« ويحك ، قم فاخرج عنى ! . . »

« يا مولاتى . . . »

لكن ابتهاله لها لم يغن شيئا عنه . فما أسرع ماغامت عينه ثانية . وقعت عليها العصابة السوداء فشدتها وأغرقتها فى الظلمة . . . وإذا به يمضى عنها على غير ما تهوى نفسه ، حسير الطرف ، فى قلبه ثقل ، ورائدته تدفعه إلى الطريق كأنها شيطان أغلق أمام وجهه أبواب الجنة ! . .

* * *

مد عينه فى أرجاء الأرض حوله فغرقت فى الليل . فراغ وراءه فراغ ، وحلكة تتلوها حلكة . المكان كله فضاء تاه فيه خاطره كما تاه باصره ، أما أنيسه فنقط بيض نقطت صفحة السماء ، وخيط باهت من النور انحنى فى عليائه . . .

القمر الراحل كان شاهده ، والأنجم الزهر . . . أما رائدته فقد ذابت فى الظلمة . ما كان أبرعها من حيلة راضته بها على المسير حتى خرجت به إلى هذه المفازة ، فلما أن حسبها كاشفة له سر فاتنته ، ووقف يمنيها بقدر الرجاء

الذى بثته فى فؤاده ، ومد يده يحرر عينه من الأسر ، كانت المرأة قد خلفته للوحدة والقمر والنجوم ! . .

ورف قلبه بين جنبيه . وجاشت أشواقه ، وهم به حنينه إلى معاودة ما كان فيه منذ قليل فدفع قدميه للسرى لعله يعود للجنة ! ... هو لم يفقد أمله ولم تغادر البسمة المألوفة شفتيه . ومن يدرى ، لعل خطوات قليلة يضرب بها هنا أو هناك تكون كفيلة بأن تلم به على الخباء الذى يعبق طيبه على مبعدة ليلة ! . .

وتوقف مليا يتدبر فى هذا السرى الذى لم يعلم إن كان أدناه إلى غايته أم قد أقصاه . . ليت يسعه أن يضم إلى سفر الهوى هذه الغزوة الجديدة ! . . ليت يسعه أن يربحها ببعض عمره الذى كرسه للحسن ! . . ليت للساء لا ينطوى ظلامه وهو هكذا حائر لا يتبين مرماه ! . . أم قد خذله الآن طالعه كما خذله ساعة الأصيل فغاب عنه مقصده كما فات موعده ؟ .

ودلفت قدمه به ثانية . ومد بصره كرة أخرى إلى الأخبية التى انتثرت حوله وفى القليل منها ضياء وفى الكثير وسن وهدوء . وعندما أوشك السأم أن ينال منه ، وكاد يهدى خطواته صوب مضربه إلى فراش له يعانق فوقه ذكرياته ، بدا كأن الرمال أخذت تهمس إليه بوقع خافت وئيد . . .

حينئذ أصغى . وتلبث برهة وعينه تغوص فى الظلمة الكثيفة . وتربص بسمعه عند مهب النسيم . . . كلا لم تخدعه حواسه ! . . فهاهى

خطا ، وها هو ظل خاب يرسمه القمر على صفحة الرمال ، وهذا عابر يظهر ويسبقه خياله . . .

وابتسم الشاعر . وبرز على الأثر لصاحب ليله من الظلال . . .

كان بديح هو القادم الذى أطلعته الظلماء . . . أمرة أخرى ؟ . . وفى نفس أمسيته ؟ . . وعلى مدى غير بعيد من المضرب الأحمر ؟ . . إن طالعه إذن لم يتعثر ؛ ولم يمل به عن موعد الأشعثية الحسناء إن هو نفذ إلى نفس الرجل بحيلة تبلغه أوطاره ! . .

وقال بعد هنيهة لصاحبه وقد ألبس وجهه لون الإعياء :

« طال سراى يابديح ولفنى التعب والسآمة ، وأثرهـا عن عيفى غائب بعيد . . »

فهتف به سامعه فى إنكار :

« ويلك ياعمر ! . . أتعاودنى بما أردتنى عليه ساعة الأصيل ؟ . . »

« كلا والله. إنما ضلت ناقتى من الغروب ، فخفف عنى وانشدها لى . . . »

« الآن أفعل . . . »

وانطلق بديح فى زقاق الحاج ينشد وينادى . فإن هو إلا نداء رددته خلفه البيد وتجاوب صداه حتى لمح امرأة تخلف خباءها ، مستترة بالظلمة ، إلى مجلس الشاعر . . عندئذ عرف أى خدعة جازت عليه ! . . فتلك فتاة الأشعث لاريب عرفت فى نشيده الآية فأقبلت للموعد . أم غاب عنه قول عمر فيها بالأمس حين قال ورددت بعده ألسن الرواة :

وآية ذلك أن تسمعـــى

إذا جئتكم ناشـــدا ينشد ؟

وأقبل مسرعا ، يضطرب بغضبه ، إلى خلوة الرفيقين . . .

« خدعتنى يافاسق ، فما ثمة ناقة إلا صاحبتك ! . . . »

فهمست — وهى تضحك — الفتاة :

« فلو دعوتنى مهاة ! . . » .

ولـكنه مضى فى ثورته :

« صدقت من قالت لك !

فهذا سحرك النسوان قد خبرنى خبرك

قد سحرتنى وأنا رجل ، فكيف برقة قلوب النساء وضعف رأيهن ! . .

وما آمنك بعدها . ولو دخلت الطواف لظننت أنك إنما دخلت لبلية ! . . »

ثم غادره . . . غادره مع الخلوة ، والحسن ، ونجوى عين لعين ، وقلب هزه الهوى لقلب شاقه الجمال ! . . .

* * *

ألحق ليله بفجره . وشهد الصباح الوداع الذى طالما خشيه فؤاده . لـكن ركبها سار على الدرب ، ثم غاب خلف الأفق فى طريق العراق .

وكان حريا به أن يستشعر الحزن ويذوق طعم الأسى على طرف لسانه . فلقد مضت هذه . . . وخفيت أخرى وراء سرها كاختفاء عينيه وراء العصـابة السوداء . . وغاب عن بال ثالثة ، نأت بالطائف وجازته بالهجر والقطيعة . . .

عالمه أقفر كهذا الوادى الذى أخذت تنطوى خيامه وتمضى بعيدا على ظهور الرواحل . جف نبع الهوى وغاض . سكن الهمس على الثغور الظمآى للذة القبل . همد البث . رسم الأمس على الخدود الناضرة ظلاله . نفرت الظباء ! . . .

نفرت الظباء وبقيت له الذكريات . وهذه كأسها مليئة ولكنها لا تنقع صداه . انفض الموسم فآب القادم وحث للنوى خطاه . . . الآن لا يستطيع عمر إلا أن يعيد لذهنه ألوانا من الجمال غدت كالأطياف ، وعيونا للحسان الملاح خبا فى أفقه لمحها كأنها ومض الأنجم عند سطعة الصباح ، ومواقع للهوه وهواه بانت عنه بعد أن خلفت آثارها عميقة فى الرمال . . .

وكان غاية ما يسعه أن يصحب ركبا نشط للرحيل لعله يخالس إحدى ظبائه نظرة أو بسمة ، ويشيع آخر وهو ينشد بعض نظيمه وداعا للملاحة الراحلة ... تجمعت سحائب الوحشة فى سماء قلبه ، أو هى أوشكت أن ترين على مرحه ، فما عاد الرمل يمسك من المضارب المبثوثة عليه إلا القليل . . .

وهمس لنفسه وقد هاجه ادكاره :

« من رسولى إلى الثريا فإنى
ضافنى الوجد واعترتنى الهموم »

وكذلك ذكرها وقد لعبت به الوحدة وغيبة الرفيق . . .

* * *

غير أن الليل الذي يصحب الأذكار ويثيره أطلع عليه ثانية ما أعاد أنسه . . .

بدت له رائدة الأمس ، من بين الظلمة ، وهو بفناء خبائه وحيد ، وهتفت وفوق شفتيها بسمة ماكرة :

« ما تقول فى جلسة كالذاهبة يا ساحر النساء ؟ . . »

« الليلة ؟ . . »

« الليلة ، وإلى الصباح ! . . »

وعلم أنها تمنيه وتغريه ثم لا تلبث أن تنحرف به ، كليلة الأمس ، إلى خدعة . ولكنه استكان ليدها تعصب عينيه . وهل له من سبيل سوى أن يطيع ؟ . .

وعندما احتوته القبة المترفة ، وامتلأ صدره من هوائها العاطر بعرف طيبه ، وأسفر طرفه للألاء النور ، لم يملك خاطره المأخوذ بالفتنة الماثلة إلا أن يسر لنفسه وهى أمامه على فراشها الوثير :

« لكأن فاها عند رقدتها

تجرى عليه سلافة الخمر ! . . »

ثم تحلبت شفتاه كأنما ترشفان من ذلك الرحيق . . .

وقالت ، فى دلها وعزتها ، وعلى محياها عبسة ، وفى نبراتها اتهام :

« إيه يا فاضح الحرائر ! . . »

فهتف يضرع :

« جعلت فداءك ، وما ذاك ؟ . . »

« ألست القائل :

وناهدة الثديين قلت لها : « اتكى
على الرمل من جبانة لم يوسد »
فقالت : « على اسم الله أمرك طاعة
وإن كنت قد كلفت مالم أعود »
فلما دنا الإصباح قالت : « فضحتنى
فقم غير مطرود وإن شئت فازدد ! »

ثم رمته بنظرة فيها ملامة وسأم فسارع يتوسل :

« نشدتك الله ! . . إنما هذه بعض عبثات شيطانى . . . »

« أو تخادع ؟ . . كلا ، بل إنك لكذلك . قم فاخرج عنى ! . . »

ولكنه علق بها عينيه ، وفيهما رجاء المغلوب . ولعب الأسى بقلبه ، وناشته الحسرة ، ومشت فى بدنه وحشة الغريب وهو يلمح رائدته تعود إليه بالعصابة . . أفقد كتب عليه أن يظل ملهاة فى يد الغانية ثم لا ينال منها ابتسامة ؟ . . ولا كلمة لينة ترفه عنه ؟ . . ولا أثرا يدله بعد عليها أو يتخذه كتذكار ؟ . .

ومشى معصوب البصر كالأمس ، يتحسس طريقه فى الظلمة إلى خارج الخباء . . . غير أنه هذه المرة كان راضى النفس ، فى قلبه أمل . فقد وسعه أن يغافل رقيبته ، وهى تشد عينيه ، فغمس كفه فى إناء الطيب ثم ضرب بها على جدار القبة — من خارج — فبلله ، وأسلم قياده للعجوز فى طمأنينة . . .

* * *

تلك الليلة زارته فى أحلامه حتى الشروق . ولم تكن هى المدلة عليه ، العابثة به ، بل قد عز عندها جانبه . وإنه ليحادثها فتصغى ، ويروى لها من شعره ما تستطيبه ، ويصورها فى أهازيجه على الصورة التى طالما أبتها منه على غيرها من النساء . . .

قال لطيفها ، فى منامه ، يرسم لقاءها وإياه :

« . . وإذا ريم على فرش
فى مجال الخز مختدر
حوله الأحراس ترقبه
نوم من طول ما سهروا
فدعت بالويل ثم دعت
حرة من شأنها الخفر
ثم قالت للتى معها :
« ويح نفسى قد أتى عمر ! . . »

ولقد أتاها حقا . عرف كيف يهتك عليها سرها وينفذ إلى قبتها التى أخفتها عنه ليلتين خلف العصابة السوداء . فما أن نفض عنه نومه وحلمه حتى دعا إليه غلمانه ، وقال :

« أيكم يوقفنى على باب مضرب عليه طيب كأنه أثر الكف فهو حر وله خمسمائة درهم . . . » .

فانطلق الفتية لأمره مع النهار ، يرسلون الأنف والبصر مع الهواء كأنهم كلاب الصيد فى آثار الطريدة ! . . . فإن هى إلا ساعة حتى جاءه واحد منهم — على محياه وجمة — يقول :

« ألا أحلك من وعدك الذى وعدت ؟ . . » .

« ولم ، ويحك ؟ . . » .

« مالك بها قبل » .

« فأنت عرفتها لله أبوك ! . . »

فلم تغر الفرحة التى شاعت فى محيا الشاعر عبده بالابتسام إنما أجابه فى خفوت وحسرة :

« ابنة أمير المؤمنين — فاطمة بنت عبد الملك بن مروان . . . » .

عندئذ كسا الهدوء وجه عمر ، وانعقد حاجباه ، وتلبث مليا يفكر كأنما يدير أمره فى خاطره . حتى إذا بدا كأنما عرف الرأى عاوده ثانية مرحه ، ثم صاح بغلمانه يقول :

« فشدوا إذن إليها المطى يارجال ! . . هيئوا لى مضربى الكبير وزينوه بالوشى ، وارفعوا قبابى الحمر فوق الظهور . . . » .

ثم رمى ببدرة إلى غلامه ، وكساء من خز ، وزاد وناقة وهو يهتف جذلان :

« خذ ، لايقولن امرؤ نكث عمر ياغلام ! . . » .

ومضى به الموكب الفخم يحث نحوها الرواحل ، معلما ببذخه الذى طالما جرت بذكره الروايات . . . وكانت هى فى خبائها تهم أن تبرح إلى الهودج عندما رنت فى مسمعها جلاجل مطاياه ، ورنة حاديه :

« كدت يوم الرحيل أقضى حياتى
ليتنى مت قبل يوم الرحيل

لاأطيق الكلام من شدة الخوف

ودمعى يسيـل كل مسـيل »

فوجمت . ومدت كفها تضغط على صدرها مذعورة ، وانحدرت على خدها دمعة عز دونها التجلد . وإذ مدت بصرها إلى جانب الأفق فأخذته سحابة الغبار المنطلقة من بعيد وراء ركبه الطويل ، غلبت الأمل على العلم وسألت إحدى جواريها هامسة :

« لمن الضجة والعير يافتاة ؟ . . » .

فتبسمت لها الأمة ، وقالت مدلة بما أحاطت بعلمه :

« وهل تضل مثل موكبه عين ؟ . . إنه فتى قريش الشاعر الساحر فاتن النساء ! . . » .

« ابن أبى ربيعة ؟ . . » .

« هو والله ، أعلمته قبابه . . . » .

فرانت الحيرة برهة على المحيا الجميل ، واصطبغ الخدان بأطياف الشفق ، والتمعت فى العينين أضواء من الشوق والخوف والرجاء . . . ولـكنها استترت من فضول الجوارى وراء أستار الهودج تدارى مامس قلبها وبدنها من اضطراب لعلها تستطيع أن تنفرد بالتدبر . . . إنه لعابث . كذلك هو ولا معدى لها الآن عن الوقوع فى مجونه . سامته الحيرة ليلتين ويومين ، وأذاقته الحنين والحسرة ، فما تحسبه إلا رادا عليها بعض سخريتها منه ، مشببا بها على الأشهاد ، مطلقا فى الورى سيرتها أغنية على ألسن الحداة وشعرا يردده الرواة فى الحواضر والبيد . . .

وخفف عنها بعض ما هى فيه أنها ابنة الذى تعنو له الجباه . . . فلعل عمر إذن يخشى بأسه ويذكر مع هذه الحشية وعيد طاغية بنى ثقيف : الحجاج ، ونذيره له أن يملك لسانه عن إطلاق غزله فى الأميرة الحسناء . . . خفف هذا عنها قلقها ، ورد نفسها إليها ، فرفعت الرأس ، وشمخت ، وعاودتها كبرياؤها . ثم دعت العجوز ، رسولة الليالى الماضى إليه ، وحملتها رسالة جديدة :

« . . . اذهبى فقولى له : انصرف وانشط بدمك ، فسيفنا لا يستطيب الحداء ! . . . »

* * *

سألت صاحبتها بعد العودة :

« ما فعل ؟ . . »

« كشف عن ثنيتيه ببسمة كإشراقة النهار ، ورد بعض مطرفه على فمه ليكتم ضحكاته ، وما زاد حين لقينى على أن هتف : « صاحبة الليل أطلعها النور ! . . »

فعضت الأميرة على شفتها محنقة ، وقالت :

« أو سخر الفاسق ! . . وما قال ؟ . . »

« همس لشاديه ثم قال : تسمعه ، واسمعيه . . . »

وترنم الشادى ، فى هذه الآونة ، بصوت جرى فيه الشجو والعذوبة :

« أحب لحبك من لم يكن
صفيا لنفسى ولا صاحبا

وأبذل مالى لمرضاتكم
وأعتب من جاءكم عاتبا
وأرغب فى ود من لم أكن
إلى وده — قبلكم — راغبا
ولو سلك الناس فى جانب
من الأرض ، واعتزلت جانبا
ليممت طيتها ، إننى
أرى حبها العجب العاجبا »

فلم يسعها حينما ذابت فى الهواء آخر الأنغام ، إلا أن تنظر باسمة إلى العجوز ، وتقول :

« ما أراك سوى معاودة تحذيره . . . »

« أتريدين ؟ . . »

« وتريدين ! . . فقد بذل لك من ماله كما نم شعره ! . . »

فأغضت العجوز خجلى إذ انكشف لسيدتها ما كانت تخفيه . ومضت الأميرة تقول :

« لا عليك . ولكننى أراه يلتزم عناده وأحسبه سيشيعنا إلى أبواب دمشق إلا أن نستطيع تخذيله . عودى إليه ثانية ، وترفقى هذه المرة وقولى : فاطمة تقرئك السلام وتقول لك نشدتك الله والرحم وحق قرشية على قرشى أن تكف وتعود . . . »

غير أنه لم يلن ، ورد العجوز إلى الهودج ببدرة ، وبسمة صافية مرحة ، ورنة شاديه فى أعقابها عذبة منغمة :

« لـكأن فاها عند رقدتها
تجرى عليه سلافة الخمر
لمـــا رأيت مطيها ضربا
خفق الفؤاد وكنت ذا صبر
وتبادرت عيناى بعدهم
وانهل مدمعها على الصدر »

فهامست نفسها :

« ويحه ! وهل رآنى ؟ . . »

ورقأت مابل جفنيها ، وهى تنصت للشدو :

«ولقد عصيت ذوى قرابتها
طرا ، وأهل الود والصهر
حتى لقد قالوا ، وما كذبوا :
أجننت، أم بك داخل السحر ؟»

فقالت كأنما تجيبه :

« جننت والله يا أبا الخطاب ! . . . »

* * *

وانطلقت بها مطاياها على طريق الشام تقطع المراحل ، فى ركابها الزهو والعزة ، وفى وجهها نضرة الحسن خالطها قلق وجاورتها حيرة ،

وفى قلبها مع الخشية من بدوات ذلك العابث حنين له وعطف عليه . فما كف موكبه عنها ، ولا تهاون ساعة عن اللحاق بركبها ومناجاته بلحن أشعاره . كلما مضت لحظة رنت فى الفضاء أهازيجه تنقل إليها هواه ، وترنم الشادى والحادى كل بأبيات هى ذوب عاطفة الشاعر الذى ملكه الجمال . . . وعندما كلت الرواحل ، وانطوت لها مراحل الشقة ، ودنا الركاب من كعبته ، كان يشيع فى أنفاس الأمسية الأخيرة لحن حنون والليل إذ ذاك يلقى على البوادى ظلاله :

إنى امرؤ مولع بالحسن أتبعه
لاحظ لى فيه إلا لذة النظر

وعندئذ برز فى الظلمة الرقيقة وجه العجوز يطل على عمر من خلل ستره . فلما تبينته ساهر اللحظ ، يسامر خيالاته ، والحنين يلون محياه ، قالت له تهامسه :

« قد رأيت يا أبا الخطاب ونعمت عيناك ! . . »

فطفر نحوها يهتف :

« صاحبة الليل ! . . »

« ولت الظلمة ودنا الإصباح . وإن للشمس عيونا ، وللناس عيونا ، فاتق الله . . . »

وهم يحاورها ، ولكن سطعة من جانب خبائه بهرت خاطره وناظره ، فالتفت وقلبه يرف كالطائر إلى الحسن الذى أسفر إلى جواره ، وقال للأميرة :

« بروحى أنت يا مولاتى . . . »

فوضعت فاطمة أصبعها على ثغرها تحذره ، وهمست باسمة :

« ولليل كذلك مسامع ! . . يا أبا الخطاب ، إنى سعيت إليك ألقاك، ليلتى هذه ، أستنشدك فهات . . »

« لولا قدمت هذا اللقاء من ليال ! . . »

« حسبك أن تسمعنى ساعة قبل الرحيل ، فما فى الزمان فسحة . . »

فأنشد :

« راع الفـؤاد تفرق الأحباب
يوم الرحيل فهاج لى إطرابى
فظللت مكتئبا أكفكف عبرة
سحا تفيض كواشل الأسراب
لما تنادوا للرحيـــل وقربوا
بزل الجمـــال لطية وذهاب
كاد الأسى يقضى عليك صبابة
والوجه منك لبين إلفك كاب »

فضحكت وقالت :

« ذاك بلسانك ، أما قلبك فلا ! . . إنما أنت امرؤ طروب ، وكأنى بك قد عدت فصببت شعرك هذا فى أذن سواى ! . . »

« بل سأقول :

يا صاح هل تدرى وقد جمدت
عينى بما أخفى من الوجـــد
لمـا رأيت ديارهـا درست
وتبـدلت أعـلامها بعـدى
وذكرت مجلسها ومجلسـنا
ذات العشـاء بمهبط النجـد
ورسـالة منهـا تعـاتبنى
. . . . . »

فقطعت عليه حديثه :

« ويحك ! . . ومتى كان منى مثل هذا إليك ؟ . . » .

فلم يهتز لسانه ، بل أجاب فى هدوء :

« يامولاتى ، وهل أنا إلا شاعر ، من الأولى يقول فيهم الله : إنهم فى كل واد يهيمون ، وإنهم يقولون مالا يفعلون ؟ . . » .

فتلقت عذره بابتسامة ، وقالت :

« فدع من الوديان ما سأنزله ، وأنجد يرحمك الله ! . . » .

« عندئذ أناجى الربع الذى هجرتم هناك أسائله :

« أين حى حلوك إذ أنت محفوف
بهم آهـل أراك جميـلا ؟
قال : « ساروا فأمعنوا واستقلوا
وبرغمى لو استطعت سـبيلا

سئمونا ، وما سئمنا مقـاما

. . . . . »

فهتفت :

« ما سئمنا والله يأبا الخطاب . ولولا أن بقاءنا بموعد وعودنا بموعد لاستنزفنا من نظيمك معينه . ولـكنها نهاية المرحلة وخاتمة المطاف . . . » .

* * *

وقالت له صـاحبة الليل وقد غابت الأميرة فى الظلمة التى لوتتها من السحر أطياف :

« الآن تعود . . . » .

فضحك ، وأجابها فى عناد :

« حتى تجيب سؤلى . » .

« ويحك ، أو ما أجابتك ؟ . . إنما تسربلت بالظنون لتناجيك . وقد ذابت الظلمة وبدت المدينة لنا من قريب فانصرف لايشهدك من أحراسها غلام ! . . » .

فتفكر برهة ثم حزم أمره :

« إنى والله لشاد الرحال خلف الرحال . ولست بمنصرف كما تعلمين حتى توجه إلى بقميصها الذى يلى لحمها أعود به ! . . » .

وتركها ولحق بأستاره . . .

تلبثت هنيهة تتدبر . ما هو إذن براجع أو تكفه بالإجابة . وإنه لعابث لا ينام عن لهوه ، عنيد لا يرده وعيد ، ولئن كانت للسيوف فى فؤاده

رهبة فغزله بالأميرة أفعل فى نفسها من جراح الصوارم . وهاهى دمشق تنفض الكرى وتمد السمع والبصر تتلهف على سماع أهازيجه . . .

وغابت عنه سويعة وهى مغلوبة على حيلتها ثم رجعت مع البكور . كان الليل قد أقلع واختفى وراء الأفق الشفاف شراعه . والفجر سرت أنفاسه فى الكون الساكن . وخيوط النهار الباهتة تجمعت من البيد فى ناحية غدت كالغدير . . وحين شهدها عمر تنشى إليه علم أن قد آن له أوان الرحيل للجنوب . فالفتاة رضخت . أخيرا استجابت لنزوات مجونه أو جنونه . دفعت ثمن عبثها به ليلين ونهارين قميصها الرقيق الذى نعم بلمس جسدها اللدن وشاع فى نسيجه عبيره ! . .

ووقف فى غبشة الصبح يشيع ركبها بعينه . درجت عيسها على الرمال . سارت القافلة . رنت الجلاجل . الآن مجلجلة ، ثم مخافتة ، ثم هامسة . انطبقت على موكبها السماء عند حد الصحراء فمضت عنه بذكرى سامر وشاعر . . . أما هو فقد أقفرت منها دنياه .

ونهض هو أيضا إلى مطاياه يحثها صوب أودية الرمل والفراغ . اليوم انفض موسم الجمال فليس له بمكة سمير . لا شىء يبدد عنه الوحشة التى أخذت تتجمع سحبها فى أجوائه . لالقاء ولا مساجلة . لاظبية ترنو إليه بالطرف الساحر وكانت لياليه كلها ظباء . . . عاد فارغ الفؤاد منها ، إلا خيالا يلقاها فيه ، وقصة عبثها به وعبثه بها تؤلف شطرا من كتاب أشعاره ، وتذكارا ناعما رقيقا يعين نفسه على الادكار ! . .

ومد يده فنشر بها ثوبها الشفاف أمام ناظريه . هذا إذن غلاف

الفتنة ! . . مجمع الحسن كله ! . . حاضن الجمال وممسك القوام اللين أن يميد وينهال ! . . ولكنه لم يرمقه ببصره إنما بلمح التخيل ، ثم همس وقد سرت حميا الرغبة فى أوصاله سريان الخمر وهو يناجيه :

« شف عنها مرقق هندى

فهى كالشمس من خلال السحاب ! »

وابتسم على الأثر إذ ذكر ، فمالها قيل هذا النسيب . فى بدن سوى بدنها قيل . فى جسد آخر من النور . فى قد وضىء لألاء كالبدر إذ يسفر ، كالنجم المزهر ذات ليلة رائعة فى الصيف ، كالثريا المتألقة فى عليائها كقطعة الماس — فى « الثريا » قيل ! . .

وابتسم ثانية ، فالنسيان يأبى أن يلف نزيلة الطائف فى أردانه . إنما لفها فى غلالة رقيقة رقة النسمة . شفافة كهذا القميص الهفهاف ، نمت عنها ، وعن هواها وهواه ، وعن حنين يغالب إليها نفسه بين سيل ذكرياته . .

وعندئذ وثب من بين جنبيه قلب قديم ، نفض عنه تراب سلوانه وعاد مجلوا كبدئه ! . . القلب الذى كان احتجزه للثريا نبض بحبها ثانية ، ووجب وجيبه ، وغلت فيه أشواقه تثور وتفور ! . . أما قلبه الذى اهتز وقتا لفاطمة ، وأما قلوبه الأخر فقد زواها ببعض أركان ماضيه . . . وحين دلف إلى دروب مكة وانثنى منها إلى داره ، وعاج على فراشه يريح فيه أو صاب ترحاله ، كان طيف حبيبة الأمس هناك يلقاه ! . .

* * *

لم يطل به ليله . ولم تمتد الوحدة إلى مطلع النهار . ففى مشرف من

البلدة الحرام كان شبحان يهيمان فى غواشى الأمسية ، غلفهما مع الظلال عثير الأسفار ، وأجنتهما وعثاء الشقة ، ومشت اللهفة بقوائم مطاياهما لعلهما يسبقان إليه إشراقة النور ! . .

قال أحدهما يستحث فتاه :

« هيا وعجل بنا يابلال . أما كفاك أنه قد قال يستنهضنا : من رسولى إلى الثريا ؟ . . فأنا والله رسوله إلى حيث أراد . . » .

فقال الثانى وفى صوته على سيده رحمة :

« أبق على نفسك ، فإن ماتريد ليس يفوتك ، وكأنى بنا عند داره والفجر لم ينسلخ بعد من أحشاء الظلمة . . . » .

قال ابن أبى عتيق :

« بل الريث يضنينى كما يضنيه . وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين الثريا وعمر ؟ . . إنى كمن يقول : أبادر حبل الود يتقضبا ! . . » .

وكان هذا إيذانا للمطايا بأن تطير ! . .

ونزلا وفى الليل بقية ، فضربا عليه بابه . فلما أن انفلت لهما من أسار ذكرياته ، وشهد ماعليهما من غبرة السفر ومن أهبة الرحيل ، هتف يقول :

« أكرمك الله يا ابن الصديق ! بروحى ما جئتنى الليلة فيه . . . » .

فابتسم ابن أبى عتيق :

« لبيك يا أبا الخطاب ! . . إنى سمعتك فأقبلت ، وإنى لغاد إليها الغداة لعلى أصلح عندها ما أفسده نسيبك برملة . . . » .

فهتف الشاعر فى حنين ولهفة :

« إلى الثريا تسير ؟ . . » .

« نعم ، وأنا الرسول الذى ترتجيه . » .

« حياك الله ! . . . فأقم الليلة عندنا تريح . . . » .

« ما أقيم . وما أذوق الطعام حتى أشخص فآتيك منها بما يرضيك . . . » .

ومضى وفتاه لم ينفضا عنهما عفرة ، يغوصان فى سواد المساء ، وفى مهامه الصحراء على راحلتين كلت دون اللحاق بهما عصفات الريح ! . . وعندما بلغا الطائف ، ووسعهما أن يفوزا بلقاء الفاتنة المدلة على رفيق هواها ، الباذلة هجرها دون الصفو والرضاء ، استقبلتهما بما ينبغى أن يستقبل به الغريب . . .

قال لها ابن أبى عتيق بعد قليل :

« إنما أنا رسول . . . »

فضحكت تداعبه :

« والرسل آمنة لهم عندنا القضاء ! . . فما حاجتك ؟ . . »

« إنى رسول عمر بن أبى ربيعة إليك . . . »

فشاع الغضب فى محياها ، ولوت جيدها عنه نافرة :

« ابن أبى ربيعه فارغ ونحن فى شغل ! . . »

وهمت أن تبرح ، فلما رأت ما بدا من الأسى فى عينيه ، رقت له ، وعادت تقول :

« أما وجد رسولا أصغر منك يوفده ؟ . . انزل فأرح . »

« وما نزولى وقد رأيت كيف تقضى لديك الحاجات ! . . فاسمعينى أؤدى ما حملنى اليك ، ثم دعينى أعود . . . »

« أدى الله عن أمانتك . . . هات . . » .

فأنشدها :

« من رسول إلى الثريا فإنى
ضقت ذرعا بهجرها ، والكتاب
سلبتنى مجاجة المسك عقلى ،
فسلوها : ماذا أحل اغتصابى ؟
وهى مكنونة تحير منها ،
فى أديم الخدين ، ماء الشباب
أبرزوها مثل المهاة تهادى
بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا : تحبها ؟ . . قلت بهرا
عدد القطر والحصا والتراب ! . . »

وتريث هنيهة ليرى فعل ما أداه فى نفسها وخاطرها ، ثم انبرى يسألها :

« فما جواب ماتجشمته إليك ؟ . . » .

فلعل الشوق قد غالبها هنيهة ، ولعل الرقة ، ولعلها ذكريات الهوى السالفات بدت لعينها الآن نابضة بالحياة تحثها أن تكر للماضى الناضر . . . انقضت بها فترة وهى صامتة ، فى فؤادها يضطرب الحنين ، وعلى وجهها ترتسم العاطفة ، وفى عينيها التماعة تهم أن تصير دمعة . لكنها نفضت هذا كله بعد لحظات ، واصطنعت الحزم ، وهتفت تجيب :

« تنشده قوله فى رملة :

وجلا بردها وقد حسرته

نور بدر يضيء للناظرينا ! . . »

فلعل الشاعر لو كان أقبل عليها بنفسه يسوق عندها معاذيره لما بلغ منها مثلما بلغ رسوله . . طاولها ابن أبى عتيق ما وسعه ، وداورها وحاورها . ماتكاد تدفع عن خيالها طيف صاحبها بعبسة أو بغضبة إلا أعاده ثانية أمام عينيها ، يخطر لها فى أشعاره فيها السحر الذى يرسلها نشوانة الفؤاد بخمر ماضيها تحت ظلة هواه ، وفيها هناءة الأمس الذاهب تعدى يومها المقفر من العاطفة وتصبغ حواشيه بألوان كأنها وميض ابتسام ، وفيها بهجة الغابر ترف على الحاضر رفيف الندى على الزهر والعود . . أحيي لها الليالى الخوالى ، وجلسة الخلوة ، وذكرياتها الحلوة . . . وهل يهيج الحنين في القلب كالذكريات ؟ . . .

وعندما نور محياها ، وأزهرت شفتاها ، وعاد كرة أخرى إلى ناظريها الصفاء ، ضحك وقال :

« والله ما أزيدك الآن شيئا يابنية فوق حديثه ذاك :

إن تجودى فطالما

بت ليلى مسهدا

أنت فى ود بيننا

خير ما عندنا يدا . . » .

* * *

الدنيا برحبها لم تسع فرحته . . . فاليوم رضيت . بسمت كالنور .

روت القلب الذى أوشك أن يذويه الهجران . أفلا يستخفه الشوق ويزدهيه نصره فيثب خفيفا كالطائر ينشد ويغرد وقد واعدته اللقاء ؟ . .

وتهيأ لهذه الزيارة التى جاءته على فترة من الزمن طويلة ، فجمع بداره ما وسعه من صنوف الرفاهة . وطيب حجراته ، وأجمرها تشيع فى جوها أنفاس البخور كما تشيع فى محراب . غير أن اللهفة أبت عليه أن يصابر الموعد حتى يئين . لم يطق الوحدة ، ولا انفراده بأفكاره ، ولا السكون الذى ثقلت عليه فيه وطأة الانتظار فمضى بفرسه يقطع بها الزمن والفيافى لحين الميعاد . . .

وكانت ليلة الوعد وسنانة النسمة ، رقيقة الغيم ، تطل فيها الأنجم كالعيون السواهر من وراء سجف السحاب . وكان الهدوء ، غلالة الكون ، قد ألقى نسيجه كثيفا على الوبر والدور ففترت الخواطر ونامت النواظر . والظلمة جرت خطوطها الداكنة فى نواحى المدينة النعسانة أشبه بأمواج بحر تدفقت لينة رتيبة فى تواتر . . . وعندما درجت الراحلة براكبتها على بساط الرمل كانت كالقارب المنساب ، وليس لوقع أخفافها سوى حفيف . وحين وثبت الراكبة عنها إلى الأرض الملساء احتضن هيكلها الليل وضن به عن لمح الأعين . حتى البدر لم يشهدها ، ففى خمارها اختفى محياها . وحتى الظلام غافلته وانفلتت سريعة من أحضانه إلى الدار الساكنة ! . . .

دفعت الباب فى حذر ، واحتواها بداخل البيت النور . ومشت على الأديم مشى الهرة بغير وقع كأنما وطئت الهواء . ثم دلفت فى هدوء إلى خلوة الهوى — غرفة الشاعر — تود أن تفاجئه قبل انتباهه . وفى خفة

تسترت بالظلال التى ملأت المكان ، وانسابت إلى الفراش الوثير الذى ضمخه العطر وترددت تحت غطائه أنفاس الحبيب الحالم فدست نفسها فى طواياه . . .

واستقبلت يقظة النائم بضحكة كرنين الفضه أو تغريد الأوتار . ولكنها لم تلق بالا إلى الرجفة التى أخذت الجسد الخشن حين مسه القوام الرشيق ، ولا حاولت أن توسع له فى الانفلات . إنما ملكته فى ذراعيها عسى أن يطمئن فى أحضانها تململه ! . . وبحثت بثغرها فى الظلام عن ثغره ، تسكت حديثه بقبلة ! . . .

كانت حينذاك فياضة الحنين ، اندفق منها الشوق الذى حبسته بين جنبيها طوال أيام الهجر . وكان بدنها اللدن تنشره الرغبة وتطويه ، وقلبها يجأر بشجوه لقلبه ويبثه ما عاناه . وكانت النشوة الغامرة قد احتوتها كلها مع الظلمة فأنست لكليهما فى استسلام . . .

غير أنها ارتدت فجأة إلى الوعى مهورة النفس كأنما لامست فؤادها ، الذى جرت فى عروقه حميا شوقها كالنار ، كسفة من الجليد . . . وانتفضت على الأثر مذعورة ، ثم صارخة ، ثم مهيضة عند قوائم الفراش تخفى بين كفيها شحوب الخزى الذى شاع فى محياها . ومن فوق فراش الهوى أنصتت مقهورة إلى صوت قاس عاصف يصيح فى زئير :

« اغربى عنى ويحك ، فلست بالفاسق العربيد ! . . . »

وندت من فمها أنة مخافتة ، ولكنها لم تنطق . بل ألقت عينها من

خلال الظلال الكثيفة ، لنرى وجهها جهما ، وعينا تتأور من الغضب كالجمر ، وجبينا قاسيا خشن جلده من آثار السجود ! . .

* * *

ذاك « الحرث » ، العابد التقى ، أخو الشاعر ، كان قد أقبل يروم أن يكف عمر عن غيه ويهديه بعد أن جرت فى سيرته الألسن الزارية تعدد فتونه ومخازيه . فلما أن رأى الدار خالية منه ، ووجده قد أبطأ ، دخل الفراش يسترد فيه بعض ما أخذه السفر من عافيته . . .

وجلس — وقد برحته الثريا — يتفكر وسيل غضبه عليها وعلى صاحبها فأر لا يغيض . ولكن فكره لم يكد ينسرح به شوطا حتى رأى عمر يدخل الدار ، الفرحة تهز أعطافه ، والبشر يضىء عينيه ، والبسمة الساخرة بجد الحياة تشق وجهه حتى أذنيه ! . .

وغضب الزاهد ، وزأر وثار ، وملأ من صوته الحانق المكان بمثل عاصفة . . . فلما أن فرغ من قصة الحسناء التى اقتحمت عليه نومه ، سمع الشاعر يجيبه فى هدوء :

« أما والله يا أخى لا تمسك النار أبدا وقد ألقت نفسها عليك ولامسك بدنها الرطيب ! . . . »

عندئذ انتفض الحرث غاضبا وصاح :

« عليك وعليها اللعنة ! . . . والله لا أبيتن ساعة بدار يسكنها الشيطان ! . . . »

وغادره لمرحه ، وخلوة هانئة عاودته فيها الثريا بعد لحظات ،

وضحكاتهما العابثة ترن سخرا بالحرث ، ونظرته الصارمة ، والدنيا كلها إلا الهوى والشباب والنشوة ! . . .

وقالت له بعد برهة تثيره :

« يا ترى ما الذى أحدثته بعدى يا أبا الخطاب ؟ . . . »

فهتف وفى نبراته رنة الواله المشوق :

« يقولون إنى لست أصدقك الهوى
وإنى لا أرعاك حين أغيب »

فسألته معابثة :

« أو ما صدقوا ؟ . . »

واسترسل هو :

« فما بال طرفى عف عما تساقطت
له أعين من معشر وقلوب
عشية لا يستنكف القوم أن يروا
سفاه امرىء مما يقال لبيب
ولا فتنة من ناسك أومضت له
بعين الصبا كسلى القيام لعوب
تروح يرجو أن تحط ذنوبه
فآب وقد زادت عليه ذنوب !
وما النسك أسلانى ، ولكن للهوى
على العين منى والفؤاد رقيب . . »

فاستخفها الطرب كمن استطارت لبه الراح ، وصاحت نشوانة :

« أما إنك والله لتسحر ، فهات زدنى ، بروحى نشيدك ! . .

وفى الحق لقد كانت الثريا كلفة بشعره كلفها بحبه ، لا تمل ترديده ، ولا يمل هو النظرة يرسلها تلو النظرة تغوص فى مفاتنها كلما غاصت وقعت منها على فتنة جديدة ! . . وإنها لتصغى إلى تشبيبه بغيرها يسمعها إياه فلا تكاد تهز نفسها الغيرة . فهى هند ، وهى أسماء ، وهى فاطمة ، وهى كل أولئكن وغيرهن من صاحبات الأسماء اللائى ملأن آفاقه فى أيامه ولياليه وجرت بذكرهن أشعاره العاطفية الرقيقة . إن حسنها وحيه . وغزله فيهن غزل فيها وحدها وتلك الأسماء ستار وكساء ! . .

وابتدرت حين هاجها الحنين عيناها فأنشد يصور لها ما كان فى الفرقة الذاهبة وما هو كائن الآن فى اللقاء :

« فالتقينا فرحبت حين سلمت
وكفت دمعا من العين ثارا
ثم قالت عند العتاب : رأينا
منك عنا تجلدا وازورارا
قلت : كلا — وحق حسنك — بل
خفنا أمورا كنا بها أغمارا
فجعلت الصدود ، لما خشينا
قالة الناس ، للهوى أستارا

ليس كالعهـــد إذ عهدت ولـكن
أوقـــد الناس بالنميمة نارا
فلذاك الإعراض عنك وما آثر
قلبي عليـــك أخرى اختيارا
ما أبالى إذا النـــوى قربتكم
فدنوتم من حـــل أو من سارا
فالليـــالى ، إذا نأيت ، طوال
وأراها ، إذا قربت ، قصارا »

* * *

وناوأته الليالى . . .

بعد ترفق وصفو باعدت ما بينه وبينها : شقة فسيحة تصول فيها النوى وتجرى كما تشاء . عاداه قدره فلا مهادنة ، وقسا بفؤاده فلا رحمة أو ريث . إنما مشت أيامه جهمة الوجوه والديول ، جافة كريح الجنوب تعتصر ماء السعادة ! . .

وكان رسول الفراق هذه المرة أخاه الحرث بن أبى ربيعة الذى نجح اليوم فيما فشل فيه من زمان . عاده يستتيبه ، ويهديه أن يرعوى هونا عن غيه وما أمعن فيه طويلا من الفجور . فما زال يصانعه ، ويكف من غلوائه ، ويروض قلبه الهيمان فى أجواء العاطفة على السكون والقرار حتى رضى أخيرا بأن يدع الشعر مركب الغواية ، ويهجر بلاد الحجاز التى تطلع حسانه فتهيج شيطانه ! . . .

خرج عمر إذن من مكة وترك فيها فؤاده . وانطلق إلى اليمن يألف

دينار ، كانت رضيخة من أخيه استقضاه عليها صمت اللسان وهجرة الملاح الحسان ، فلحق هناك بشعابها الجافة المجدبة لاينطق فيها بهواه ولايداعب قوافيه . وعاش فيها شطرا من عمره بغير قلب . . .

فلو لم تأته الأخبار ذات يوم بما حرك دماءه ، ودفع بأخيلته الحبيسة إلى التحليق ثانية فى سماء ماضيه لظل بتلك المفاوز قطعة من الصخر الجامد تؤلف جزءا من جبالها الركينة . . . لكن نسمة من الشمال أقبلت تهمس له ، فيها ندى الطائف وعبير بساتينه ، بليلة نكد فاتنته الذى خضبته إذ ذاك قطرات الدموع . . .

ونسى الشاعر وعده ، ونبت به العزلة التى أسلكته حينا فى مسالك الزهد والزهادة ، فارتد ثانية إلى الحياة ، وما أعنف اضطرابة الحياة فى جوانح من تخزه الآلام ! . . .

من صومعته النائية سمع بالثريا قد غادرت دنياه إلى عالم امرىء سواه . هجرت كرمة الهوى . ثقل عليها فراقه . دحر صبرها وسوسة أهلها فى أذنيها ووسوسة صواحبها وأتراب فأسلمت زمام حسنها لصاحب جديد .

وفى الحق لقد كانت الفاتنة طوال غيبته فى صراع دائم مع العرف والمغريات لم تطق أن تخوضه وحيدة . فإذا هى آخر الأمر تكل ، ثم تقنط ، ثم تسلم مغلوبة على جلدها وحيلتها لترى نفسها قد شدها وثاق الزواج إلى « سهيل » تهم أن يحتويها ركابه إلى منزل له على ضفاف النيل . . .

عندئذ ركب بلهفته جواده ، يقسره على أن يصطنع جناحا يضرب الريح ليسبق نحوها السويعات التى يتلوها الرحيل . فالبادية أمامه طويلة ،

والمراحل جمة ، والقلب الذى نام حينا بين جنبيه قد أخذ يطفر كالطائر ضاق عنه محبسه . . . وإن جواده ليعدو ، وإنه ليستشعر الجهد ثم يتبعه جهدا دون أن يمل أو يلتوى به عنانه ، وإن المدى لينكمش تحت قوائمه والمسافات تنطوى ، من صخور ومن رمال ، وهو لا ينى يحرص على بلوغ غاية الشاعر قبل دورة ليل ونهار . . .

وقدره عمر قدره ، ورق له ، فهتف يشيد به :

« تشكى الكميت الجرى لما جهدته
وبين لو يستطيع أن يتكلما !
لذلك أدنى من خليلى مكانه ،
وأوصى به ألا يهان ، ويكرما »

ولكنه لا يكف يدفع به فى غمرة المسافات ، دون مهل ، حتى يدخل الحجاز . . .

* * *

ومن المدينة بعث إلى الثريا رسالته :

كتبت إليك من بلدى
كتاب موله كمد
كئيب واكف العينين
بالحسرات منفرد
يؤرقه لهيب الشوق
بين السحر والكبد

فيمســـك قلبه بيـــد

ويمسح عينه بيـــد . . .

فأمسكت قلبها ، ومسحت عينها مثله فإذا دمعها يندفق ولا يجف ماؤه . . . ما لهذه البادية لا ترق لبنيها ، ولا تكف عنهم عرفها البغيض وإنما تقدمهم قرابين وضحايا لتقليدها البالى ؟ . . وما لها تقسو على الهوى وأصحابه منذ انبسطت على أديمها المجدب حبات الرمال ؟ . . وما للناس فيها يؤلهون الغرام ثم لا يلبثون حتى يحطموا محرابه ؟ . . .

ولم تكد دمعتها تجف على كتابه حتى كان يتعجل إلى الطائف لقاءها عسى أن يروى من جمالها ظمأ روحه قبل نضوب نبعه من دنياه . وكان الليل وحده خدينه ، صحبه فى السرى الطويل . وكان طيفها دليله ، فما فتئت تبدو لعينيه وباله ، وتلم بخاطره المشوق خلال ذكريات عهد هواهما الرخى الجميل . وإن قلبه لحائر ، وإن طرفه لساهر كأنما رسمها الحبيب ملأ ناظره فشق التلاقى على أهدابه ! . . .

ومضى وهو يقطع البادية النعسانة يهمس لفؤاده الحزين :

« نام صحـــبى ولم أنم

من خيـــال بنا ألم »

ثم راح الوسن يراود جفنيه فيذوده ، والنصب يفتر أعضاءه إلى حد الهمود فيأبى أن يجنح إلى الرقاد ، ومن حوله ركبه يرين عليه السكون ، وصحبه تداعبهم الأحلام . . .

وحين بلغ الديار كان قلبه قد تنبأ بالوحشة التى طالعته بها قبل أن

يحسها بساعات . ولكنه سار وفكره ، وسرحت به الذكريات خلال الرسوم التى كانت مراد عاطفته زمنا من عمره غدا اليوم فى ظل الغابر ... ها هنا كانت للهوى مراتع ، وللصبا الغرير ملاعب تنيرها البسمة وتغنى فى أنحائها القبل على رنين الأشعار . . . هاهنا قطعة من شبابه اليانع ومن حسنها النضير امتزجتا فى أنشودة خطها الحب على صفحة الرمال وتوشك أن تطمسها عبثات الريح . . هاهنا اليوم صفاء ماضيه بات رهين يباب ونزيل بلقع خراب ! . .

وحادثها بلسان خياله ، وذكر دارها الليالى الخوالى ، وحيا حيها لعله يجيب أو تتردد فى نواحيه أصداء هتافه . ولكن قلبه الحزين لم يستقبله غير الفراغ ، وبيانه المتردد كر حسيرا إلى مسمعه ليس يحمل سوى نواحه ، وعينه الباكية قلبت لحمها بين الأطلال الصامتة فى حسرة مريرة . . .

وهمس لنفسه ، ثم لليل الموحش ، والنجوم السواهر ، والفضاء الهامد العميق السحيق :

« ما على الرسم بالبليين لو بين رجع السلام أو لو أجابا ! . . »

لكن الرجع صمت عنه . والفراغ الذى تطويه قوائم جواده كان يتسع أمامه مداه كأنما القوائم أخذت تنبش له عن فراغ جديد . الرقعة تنبسط ، والرحلة تطول ، وما زالت النوى فى ركابه ! . . وهذه الظلمة أنواء تلت أنواء . والفضاء الرحيب كثف على نفسه سواده ولم يبد فى طواياه لمح نجمه الزاهر . والشوق فى قلبه يتفجر ويثور .

وبدت له ، بعد حين كالدهر ، فى جنب الأفق نقط سود راحت

تتحرك وتتذاءب من بعيد . وكان الليل قد أوشك أن يبرح ، والصحراء الفسيحة أخذت ترق على أديمها الظلال . . . هذه أنفاس الفجر ، تزف مشرق النهار . وهاهى الصبا الريانة ترف عليه فتبدد عنه بعض أوصابه وتجفف حبات العرق التى تناثرت على جبينه . وتلك ريحها تعطر الجو ، ريحها أقبلت نحوه من صوب النقط الصغيرة السود التى أخذت تبرز ، رويدا رويدا ، مع أطياف النور حتى تبين فيها ركبها يسير . . .

إن سطعة الفجر وجهها أسفر ، والنسمة المنعشة طيب رياها . فما لهذه الصبابة تلح عليه الآن وهو دان منها إلحاحها وهو عنها بعيد ؟ . . ما لقلبه هاجه القرب كما هاجه قبله التنائى ؟ . . وما لعينه التى نزفت حتى حسب نبعها غاض قد عادها اللحظة البكاء ؟ . . ولم يدر كيف داناها . ولا على أية هيئة ترك جواده ومضى نحوها على حبات الرمل يمشى بخطوة المخالس . ولا العاطفة التى امتلكته ساعة مسيره إلى ركابها المستر : أهى شغف ولهفة أم أسى وحسرة . . . ولكنها هى التى استشعرت وجوده ، حدثتها نفسها بأنه من خدرها قريب . وإذ مدت طرفها من خلل خدرها تحققت لها نبوءة الفؤاد ، فاضطرب نفسها وغامت عيناها . . .

هتفت وهى تستقبله وهديها ندى بليل :

« بنفسى من لا يستقـــل بنفسه

ومن هو — إن لم يحفظ الله — ضائع »

ولم يدع فى أويقات الفجر لحظة لم تستمع حزينة لبثه ونجواه . . .

* * *

فعساه لمثل هذا اللقاء كان قد صاغ شعره الذى قال فيه :

عاود القلب بعض ما قد شجاه
من حبيب أمسى هوانا هواه
يالقومى فكيف أصبر عمن
لا ترى النفس طيب عيش سواه
أرسلت — إذ رأت بعادى — أن لا
يقبلن فى محرشا إن أتاه
دون أن يسمع المقالة منا
وليطعنى فإن عندى رضاه
لا تطع بى — فدتك نفسى — عدوا
لحديث على هواه افتراه

فما يكاد يصور من فراقهما هذه الصورة التى أبرزت وجوه الوشاة ، حتى يقفى على آثارها بصورة لمشاعره التى تلهب فيها حبه وفاض :

ما ضرارى نفسى بهجرى من ليس
مسيئا ولا بعيدا ثراه . . !
واجتنابى بيت الحبيب وما الخلد
بأشهى إلى من أن أراه

ولكنه قدر جرى عليهما بالقطيعة زمانا ، ثم بعدها بالفراق الدائم الذى لا يحول .

وقالت له وهى تقهر شفتيها على الابتسام :

« يا أبا الخطاب ، يوفقنى الله وإياك ، ليس هذا أوان العتاب مع وشك الرحيل . . . »

فابتسم كبسمتها . وسلخ عن نفسه أحزان حاضره ، ثم كرمعها إلى الماضى الوارف يتفيآن ظلاله ويعيشان منه ساعة فى جنة الذكريات . . . فليت الفلك تقف دورته ، وليت النور لا يملأ الكون فلا يطلع عليه بنهار كالنار . وليت أجل التلاقى يمتد عساه أن يبثها كل أشجانه فى ألحانه !.

غير أن أضواء الصباح تؤذن بالفرقة ، فيلوى إلى الأفق اللؤلؤى عينيه ، ثم يهمس كأنما لسامع يقيم فى أعماقه :

« فلما أفضنا فى الهوى نستبينه
وعاد لنا صعب الحديث ذلولا
شكوت إليها الحب أظهر بعضه
وأخفيت منه فى الفؤاد غليلا . . . »

فذاك ما وسعه . وهل كان يغنيه أن يفيض ؟ . إنها بعد قليل لغائبة عنه ، مع القافلة التى اجتازت البيد ، فى منزل ينتظرها بعيدا ، بعيدا ، على ضفة النيل . . . وإنه ليشهدها تبرح فيمسك قلبه وعينه تجلدا ومصابرة. حتى إذا درجت عيسها على الرمل ، وتردد فى الفضاء الحداء ، والتمعت على الأديم المنبسط أطياف النور تمشى على آثارها الظلال ، مد بصره يطل منه قلبه المشوق يتبع الركب ويتأثر من بقايا هيئته نقطا سوداء راحت تتذائب فى جانب الأفق — الآن ظاهرة ، ثم متضائلة ، ثم شاحبة لا تكاد تلقفها العين حتى تنطبق عليها التقاءة الأرض بالسماء وتغيب فى المجهول...

ويرد عمر عينه ، حسيرة كليلة ، ويهتف لنفسه فى خفوت :

« إن من تهوى مع الفجر ظعن ! . . »

وعندما يمر ، فى الأودية ، بربعها الخالى ، يقف عليه هنيهة يحيي دوارسه ، ويستحيي خلال آثاره ما سلف من أخباره . فثمة سفر للهوى انطوت صفحاته ، وغابت بين غلافيه أناشيد لقلبه كان يرجعها الليل ، وتهتف بها الورق والطيور . وثمة خيالات شبابه الهنىء ، وبسماته ، وفرحة كانت تلون أمامه قتام الحياة . . .

يقف أسيفا خاشعا على الحى يبكيه :

« يا صاحبى ، قفا نستخبر الطللا
عن حال من حله بالأمس ، ما فعلا
فقال بالأمس لما أن وقفت به :
إن الخليط أجد البين فاحتملا
وخادعتك النوى لما رأيتهم
فى الفجر يحتث حادى عيسهم زجلا
لما وقفنا نحييهم وقد صرخت
هواتف البين واستولت بهم أصلا
صدت بعادا ، وقالت للتى معها :
بالله لوميه فى بعض الذى فعلا »

ولقد صدت فعلا ، قبيل الرحيل ثم فاءت إلى رضائها عليه . فما كانت فى الزمن بقية بعد للصدود وقد آذنهما القدر بفرقة ما لها من

نهاية . . . أما الآن فهو الذى يلوم نفسه ، ويعسر فى حسابها أشد عسر وأمضه ، ويستذل عينيه لتبكيا على حقبة من حياته كانت حقيقة بأن تكون خير أيامه وأنضر لياليه . فلولا نوبة الزهد التى مرت عليه كالغيمة ، وحجبت عنه عالم فتونه ، ونأت به فى اليمن عن مراتع الغيد والملاح لما غابت الثريا عن أفق هواه . . . لكنها نوبة أنجبت حسرة وتوبة أعقبتها الآلام . . .

ثم يعود . . .

* * *

الآن يعود للحجاز بحسانه ، وإلى مواسم الجمال فيه توشك أن تحرك فؤاده بالشوق ولسانه بفرائد الغزل وولائد القصيد . لكن عمره يشرف به على جانب آخر من الحياة الهوى ليس كل ما فيه . فلم يعد الليل يجرى بفوديه !.. ولم تعد حميا الشباب حارة كحميا الشراب ! . . ولم تعد أوصاله متينة ركينة تدب به فى الأودية والوهاد لينشد الفتنة ! . . ذهب الصبا وبقيت الصبوة ! . . غابت الفتوة ! . . ضمر شبابا ووهن قوة ! . . أما ذكرها فلم يبرح ذهنه ، كلما جنه الليل عادته حين تبزغ الثريا عليه من جانب الأفق الأدكن الذى تكاثفت عليه ظلال المساء . وكلما رنت عينه الساهمة إلى سحائب الجنوب تجدد له شوقه حين يرنو إليه سهيل من خلال الغمام . هى فى أفق مشرقه وهو فى أفق مغربه ، قد باعدت بينهما عوالم وسيعة من الفضاء . ودنى وأكوان من الشمس والنجوم تزرى برحابة دنياه . ولكنهما — مع ذلك — على الأرض التقيا ، بنجوة عنه ، بكرمة بعيدة ليس يراها طرفه الكليل وقد يضل عنها خياله ، بمنزل عابثته أمواج النيل ! . . .

ويتبع النجمين المتنائيين عينه عندما يبدوان فى لياليه ، ثم يهتف وقد ذكر صاحبته :

« أيها المنكح الثريا سهيلا
حسبك الله : كيف يلتقيان ؟
هى شامية إذا ما استقلت
وسهيل إذا استقل يمانى ! »

* * *

لكن القدر أطول باعا وأقوى يدا من أمانيه ، فوثق ما بين الشتيتين ، وجمعهما سويا فى دار هجرة ونضرة ، وبقيت للشاعر الفكر ا..

ولقد يطوف عمر على ظهر جواده ، أو بموكبه المترف لينفض عن نفسه ملل أيامه ، فإذا هو لا ينسى كلما دنا بهركابه من الطائف أن يثنى العنان نحو ربع الهوى القديم ، يملأ منه عينه ، ويستعيد نشوة الماضى فى آثاره ، ويستلهمه أفانين حبه وألوانا همت أن تدرس وتندس فى ثراه ... حتى إذا قضى منه ما يقضيه عابد فى محاريب معبوده ، عاد ثانية لوحدته وهو يلوم الأطلال :

« يا ربع مالك لا تجيب متيما
قد عاج نحوك زائرا ومسلما ؟
جادتك كل سحابة هطالة
حتى ترى عن زهره متبسما
لو كنت تدرى من دعاك أجبته
وبكيت من حرق عليه إذن دما ! »

غير أن الأنس الذى التمسه فى الأطلال فلم يجده ، والوحشة التى كانت تعوده إبان ذكرياته فلا يستطيع أن يردها بعيدا ، قد وسع نسكه أن يجبلهما حسبما شاء . . . ففى ظلال الروح صار فى مقدوره أن يأنس إذا أراد ، وأن يجرد النفس من فتونها القديمة ، وأن يسمو على مطالب جسده ونزواته من كلف بفتنة الأنوثة أو شغف بنشوة تسيلها فى عروقه خمرة الصبابة . . . الآن مال للزهادة وقد ذهب ربيعه وولى شبابه المونق النضير . فقد مشت به الأيام حثيثة الخطا إلى خريف عمره ، وما تزال تدلف به رويدا رويدا إلى الشتاء . . . والليالى بعد هذا حليفة السلوى ، تهب النسيان . .

ومضى مع الزمن إبان مراحل حياته الأخيرة منحنى العود كأنه غصن ذوى وجف ماؤه ، يقهر طرفه على أن ينثنى عن الفتنة ، ويقسر أوصاله — التى ترتجف أحيانا فى دمائها الرغبة — على السكون والقرار . ولكنه لم يستطع قط أن يملك قلبه أو يروضه على هجران شوقه للجمال ونهمه إلى استقراء آياته المنبثة هنا أو هناك أينما خطرت الظباء وإن جهد ليتخذ منها صورا تتداعى لها خواطره وذكرياته . غدا لا يتذوق الحسن إلا بناظريه ، صامتا ، لا يعابثه ولا يناجيه ، فقد كان يعلم أن للشعر مزالق قد تنحدر بروحه التى نذرها خالصة لله ، فكف عن صياغة القريض . .

كان حسبه أن يبصر ثم لا يعبر . وأن يملأ العين من مفاتن الحور إن عرضن له ثم لا ينشد ولا يغرد . . . غير أن شوقه الحبيس بين جنبيه

عثر به ذات ليلة مشرقة الأنجم ريانة النسيم فأفسد عليه نذره ، وحرر لسانه من عقال صمته الطويل . . .

تلك ليلة حرية بألا ينساها إذ طالعته بالحسن والشباب يوشك أن يبهت على ثغريهما الابتسام . وهل يؤلم شاعرا كمثل الشباب الحزين والحسن الذى يكاد تغشى غيوم الهموم إشراقه ؟ . . إنه إذن ليبذل من ماله ، ومن نفسه ، ومن نذره ووعده ولا يرى عليه بعد هذا من إثم ولا جناح . . . وهاهو يحرك قدميه ، وئيدا وئيدا ، حسبما يبيح وهنه ، ويدرج خطوة بعد خطوة كالطفل يلم بالكعبة ويطوف . . وهاهى فتاة كالزهرة ، فى عينها دموع كأنها ندى الصباح . . وهذا فتى يدانيها على حذر ، ويحادثها بلمح طرفه هنيهة وبالهمس هنيهات . . . عندئذ يذكر عمر مجونه القديم ، وما كان من قلة اكتراثه للمحارم ، واختلافه ليفتن النسوة أثناء الموسم ، فساءه من الشاب ما رآه ، وصاح ينكر عليه :

« ويحك ! . . آلساعة ؟ . . وفى حرم الله ؟ . . »

فاضطرب الفتى ، وتلون محياه . . . ثم أجابه بعد طول تردد وحيرة :

« إنها ابنة عمى . . . »

« ذلك إذن أشنع لأمرك ! . . »

ولكنه حين علم بالحب بين الصغيرين ، وبالحاجة تمسك الفتى أن يتقدم لخطبة فتاته ، وبإباء عمه إلا أن يغلى لبنته الصداق ، رق قلبه وقال :

« وكم يريد ؟ . . »

« أربعمائة دينار ، وأنا غير مطيق . . . »

وهمس عمر لنفسه ، وقد تندت عيناه :

« والله لا يكونن ابن أبي عتيق أكرم بي منى بهذا الغلام ! . . »

ثم أمسك بيد العاشق الملق وسار وإياه وهو يقول :

« أنا لك بما يريده الشيخ ضمين . . . هلم الطريق ! . . »

ومضى معه إلى عمه فأمهره للصبية ، ووثق بينها وبين حبيبها ، وأحال في ناظريهما الأسى فرحة وبهجة ، ثم جمعهما معا بين ذراعيه في حنان وقال :

« يا ابني أخي ، لقد كنت مولعا بالجمال أتبعه ، وقد راقني حسنكما ، فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه ! . . . »

وخلفهما للهوى والآمال الحلوة . . . . . .

قالت له جاريته وقد شهدت النضرة الذاهبة تكز إلى وجنتيه ، ولمعة الشوق تداعب عينيه ، واضطرابة عاطفته المكبوتة تلعب على ثغره فيبدو كأنما يجهد لكيلا تنطلق بيانا هاتفا على لسانه :

« إن لك والله لأمرا . . . »

فلم يرد عليها ، بل كبح جماح عاطفته . . .

وعادت تقول ثانية :

« كأن القوافي تزدخر بصدرك فتحبسها شفتاك ! . . »

عندئذ صاح :

« قاتلك الله ! . . أما علمتني نذرت ألا أقول ؟ . . »

لكن إلحاحة الشوق لم تدع له صبره ، فإذا هو بعد فترة شهدت صراعا حادا بين رغبته وبين نذره يقول للجارية :

« فأعدى لى تسعاً من العبيد ! . . »

« أو نرحل ؟ . . »

« بل أنشد :

تقول وليدتى لما رأتنى
طربت، وكنت قد أقصرت حينا:
« أراك اليوم قد أحدثت شوقا
وهاج لك الهوى داء دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاء
إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسول
فشاقك أم لقيت لها خدينا ؟ »
فقلت : « شكا إلى أخ محب
كبعض زماننا إذ تعلمينا
فقص على ما يلقى بهند
فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تسلى
مشوق حين يلقى العاشقينا

وكم من خلة أعرضت عنها
لغير قلا وكنت بها ضنينا
أردت بعادها فصددت عنها
ولو جن الفؤاد بها جنونا ! »

وأعتق العبيد تكفيرا عن نذره ، كل عبد ببيت شعر ! . .
ثم صمت بعدها عن البيان .

غرام الجارية

رقص على النغم قلبه ، وغمرت نفسه نشوة كأنها هيام عابد ، وتفترت أعضاؤه بخدر لذيذ . . . غدا من حياته فى مثل الحلم حجب عنه كل عالمه إلا سنا الثغر الجميل الذى يشدو ، والأصابع الرقيقة التى تداعب أوتار المزهر ، والصدر الناهد الذى يضطرب بين علو وهبوط وفق جرس الألحان . . .

ولم تكن الفتاة إذ ذاك تحت لمح عينيه ، ولكنها كانت ماثلة على لوحة خياله . إن غناءها العاطفى الرقيق هو الذى يجسمها له ويكاد ينقلها إلى الحجرة التى انفرد فيها بأفكاره . . . هذه الجدران الصماء لم تستطع أن تفصله عنها ، ليست بحجاب حاجز ، بل بدت أرق من الأستار الحريرية التى انسدلت على شرفات حجرته وأخذت الأنجم الزهر تطل من خلال وشيها عليه . . . والأبواب المغلقة كانت أكثر شفافية من الماء . . . والردهة الطويلة التى باعدت ما بين جناحه الملكى وبين مخدع المغنية انطوى طولها فى وهمه وصوت الفتاة يسرى إليه فى هدأة الليل على إيقاع العود :

أخلاى بى شجو وليس بكم شجو
وكل أمرىء مما بصاحبه خلو
أذاب الهوى لحمى وجسمى وأعظمى
فلم يبق إلا الروح والجسد النضو
وما من محب نال ممن يحبه
هوى صادقا إلا سيدخله زهو

فهمس لنفسه وإن كيانه ليهتز من نشوته :

« زهو ؟ . . ما أنصفتنى والله يا فريدة ! . . ولو قد أتيح أن تكشفى عن هذا القلب — » .

ولكنه رد يده التى كانت إذ ذاك قد امتدت نحو صدره كأنما تومىء إلى موضع العاطفة منه ، ردها ونهض متخاذلا كمن لعبت الخمر بلبه فاستقبل الشرفة يزيح سترها ثم يمد ببصره إلى دجلة الذى التمع مجراه المنساب بين الرياض . ومضت عينه بعيدا عبر الشاطىء ، وعبر الزروع والحدائق النضر التى اكتست بها أراضى السواد ، وعبر ما انتشر هنا وهناك من صروح ودور وقصور ظلت ظلالها تخفت رويدا رويدا حتى التقت حدود بغداد بالصحراء التى لفها صمت الليل . . . ما كان أجل هذا المشهد الساكن وما أحبه إليه ! . . إنه ليعديه ! يسكب الهدوء فى روحه الثائر فيرده رجلا آخر غير « الواثق » الذى علمه الملأ خليفة يؤثر أن يقيم ملكه وملك أسلافه العباسيين على قاعدة من العنف والضراوة . .

لكم عجب لنفسه وأنكر منها هذه الرقة التى لا تنى تغزوها كلما

ضمته أمسية يتردد فيها لحن تزفه إليه صاحبته من بعيد على جناح النسمة ! . . كان عزفها السحر ، وصوتها البشرى ، ونغمها ترنيمة العيد ! . . ومنذ أهداها إليه ابن بانة ، ودخلت قصره ، وضمها إلى سرب حسانه وهو يحس أنه يحيى حياة مزدوجة : واحدة خلال أيامه كلها بطش ، وأخرى وادعة خلال لياليه . بل توشك الثانية أن تطغى بحنانها على الأولى فتهذب طبعه الجموح المنهوم للبغى والشدة . . . فأى سلطان لهذه الجارية عليه ؟ . .

إنه لا يدرى . لايكاد يدرى غير أنها كلما داعبت أوتار عودها وأرسلت صوتها الشجى بالغناء نفثت فيه خفة استشعر معها أنه غدا روحا فانتقل بعيدا بعيدا عن عالمه الذى تدب فيه الدسيسة ، وعن نفسه التى تهوى القسوة ، وعن خواطر ذهنه التى تسبح دائما على جداول من الدم ! . . كان شدوها يحلق به فوق الأفلاك ، الغمائم البيض موطىء قدميه والدنيا العلوية دنياه ! . كان يتجرد من ذاته ومن صفاته ومن نزواته ثم لا تبقى منه إلا عاطفة قدسية كأنها هيام عابد يتهجد خاشعا فى محراب ! . . كانت تمسح بغنائها على قلبه القاسى فإذا هو يذوب رقة ورحمة حتى لايسعه إلا أن يحب كل ما تقع عليه عيناه ويستقبل الوجود بمثل فرحة الطفل يستقبل صدر أمه الحنون ! . .

وجاءه تغريدها ، وهو بمكانه من الشرفة ، رائقا لولا رنة أسى شابته وهى تتم الغناء :

بليت وكان المزح بدء بليتى
فأحببت جهلا والبلايا لها بدو
وعلقت من يزهو على تجبرا
وإنى فى كل الخصال له كفو

فما ملك أن رفع يده فمر بظهرها على عينيه وقال :

« ظلمتنا الجارية لو أنها عنتنا بما تقول ! »

* * *

وجاذبته إليها نفسه . . . ليس ما كان بينها وبينه مثل ما بين رجل وأنثاه . إنما تشوقه رغبة ثم ترده رهبة ، ويكتنفه سلام لا يلبث أن يخلى السبيل لقلق وحيرة . . . لقد كان عجبا أن تثير فيه الفتاة كل هذا الخليط من الأحاسيس المضطربة فتتراوح نفسه بين سمو وهبوط . . . لا ! بل هو يتجنى عليها لو ظنها تنحله بعض هذه المشاعر التى تتفق وطباعه ، فإنما تنوء على روحه الطمأنينة وتحرك قلبه بأنبل العواطف . كانت تغنيه فتذوب فى غنائها ضراوته ويعيش فى جو نغمها بقلب قديس ، لكنه لا يلبث حينما يسكن اللحن ، وتضع العود ، ويكف ثغرها الجميل عن الترنيم ، أن يعود الخليفة سيرته التى ينكرها الليلة من نفسه ، فإذا وجهه تكسوه جهامة ، وإذا ملامحه تقسو ، وإذا عيناه — عيناه اللتان نطقتا بالرحمة ، وسالتا بالدموع — قد تلهب فيهما شىء يشبه الغضب ودار إنساناها كما فى عينى مجنون ! . . وكانت أشد ما تكون عليه هذه النكسة عندما تتبدى الفتاة فى شفوفها أمامه مثلا رائعا للجمال الدافىء الذى يتوق هو لو استراحت

عنده ثورة جسده ! . . ولكنه حينذاك ينساها . . . تتوارى عن ناظريه خلف ضباب رقيق لا يني يكثف ثم يكثف حتى تختفي كل فتنتها وتتلاشى كما تلاشى صوتها المترنم منذ قليل بعد أن سكن اللحن . في هذه اللحظة ينقلب الناسك المتبتل والناسك الهائم بجو نشوته القدسية إلى وحش فلاة تستبد به ثورة طارئة مجنونة تكاد أن تدفعه إلى التدمير والفتك وسفك الدم! . . فكأن طبعه المجبول على البطش قد ندم إذ أضاع — خلال إنصاته لشدوها — لحظات قصيرة ذهبت هباء في غير ما جبل عليه ! . . وكأن الحنان الذى نقله إليه الغناء وأعدى قلبه بعدواه قد اقتحم من نفسه مالا يباح فوجب إذن أن يتطهر من أثره ! .

لذلك كان يدفع دائما شوقه للفتاة فلا تضمه وإياها غرفة واحدة ، ويقنع أن يأتيه شدوها عبر الجدران ! . . كان يخاف جمالها على نفسه أيما خوف لأنه يوقظ في صدره الوحش الذى خدره النغم ، وكان يخشى عليها أيضا عقبى نكسته . . . وقد طالما أذابه الحنين وعذبه ولكنه آثر أن ينصهر قلبه بلوعته وهو بعيد عن الجارية الحسناء يرضى بأشباع نهم روحه على حساب تجويع بدنه ، فهل هو صراع كان « الواثق » فيه منتصرا ، أم كان مدحوراً ، أم كان الظافر المهزوم ؟ . . .

لكنه الليلة يحن للفتنة المجسدة ! . . يأكله الشوق إلى أن ينعم بصره ويستمتع كما استمتع السمع ، وإلى أن يلتقى الجسم بالجسم كما التقى الروح بالروح ، وإلى أن تطغى فريدة عليه بسحر الحسن ويطغى عليها بجبروت

القوة ! . . ولعله ، وهذا الحنين ينازع نفسه ، كان يستشعر أنه بسبيل اجتياز تجربة جديرة بالاجتياز ! . .

وكانت فى الليل بقية لمتعة ، فصفق الواثق يدعو غلامه ، وقال يسأله :

« أهنا ابن الحرث يا غلام ؟ »

فانحنى الخادم أمامه إجلالا ، وأجاب :

« لو شئت يا أمير المؤمنين لدعوناه ، فليست نوبته الليلة »

« على به ، وإن حملتموه حملا إلى ! . . »

* * *

وجىء بمحمد بن الحرث ، سمير الخليفة ، كما يجاء بمذنب . عاجله الحرس حتى لقد أعجلوه عن بعض ثيابه ! . . ولم يكن يدرى فيم هذه الدعوة ، ولكنه كان بها مستطار الجنان يخشى أن يكون واش مشى بينه وبين الخليفة . . .

ومضى الرجال يطيرون بركبه يشقون الظلمة فى دروب وأزقة لم يطرقها من قبل ولا يكادون يقطعون بعض الطريق حتى تتخلف ثلة وتقبل ثلة ، تسلمه الواحدة إلى أختها وهو من أمرهم فى حيرة ومن مغبة الرحلة فى جزع . فلو أنهم أخبروه ما ينتظره هناك ؟

لكنهم زموا شفاههم على الألسنة وكسوا وجوههم بالتلغيز والجمود . . .

تركوه فريسة لحدسه يستنبىء ويسأل بمثل هذيان المحموم :

« نشدتكم الله ، لعلكم أخطأتم ! »

فإن تفضل عليه منهم واحد بالكلام أجابه فى هدوء يزيد قلقه :

« لا والله يا محمد ، ولكننا أمرنا فأطعنا ألا نجعلك تستقر على هذه الأرض التى أنت عليها إلا أن — »

ثم يدعه يتنبأ بنفسه بقية الجواب الرهيب ! . . .

على أنهم ما لبثوا حتى أفضوا به إلى جانب من الدار موحش ، لم يكن ليطأ حرمه قبل ليلته ، فدخلوا به من باب فيه . وأسلموه هناك إلى حارس أسلمه من بعده إلى آخر ، ثم مضت أكف الحرس تتداوله تباعا وهو مبهور النفس من فرط خوفه حتى انتهى إلى رحبة فسيحة لبست جدرانها بالحرير وفرشت أرضها بنسيج الذهب . عندئذ ارتد إليه بعض ما ذهب من روعه إذ كان المكان موحيا بالطمأنينة ، ففيه تلألأ الضياء كسطعة النهار ، وفى جوه انتشر عرف الزهور ، ثم ترددت فى سكونه رنات عود .

واجتاز الردهة على هدى نغم الأوتار إلى رواق التمع فيه لألاء النور ببرق الجوهر ، فلما أن مد عينه إلى الداخل ، ولمح السرير الذى اقتعده الواثق فى صدر المكان وفريدة إلى جواره ، مضى عنه كل ما عاناه !

وسجد فقبل الأرض عند مقعد مولاه :

« خيرا ، يا أمير المؤمنين . . . »

فابتسم الواثق وقال :

« بل هو خير من الخير ! . . أما تحب أن تكون ثالثنا الآن . . »

« بلى والله ، فلقد كدت فى الطريق أقول يرحمنى الله ! . . »

وجلس إلى نصيبه من الشراب . . .

* * *

لم ينعم ابن الحرث ، وهو إلف الترف والمباهج والليالى الحمراء ، بمثل ما نعم به من ألوان الجمال الذى أفاضته عليه ليلته . . . أفكانت فتنة الجارية ، أم حميا الشراب ، أم حنان الموسيقى ، أم عذوبة الصوت — كلها أو بعضها ما لعب بقلبه فاعتلى بمشاعره إلى مثل الجنة كما يتصورها خيال متصوف هيمان ؟ . . . إنه لا يدرى . ولكنه يستطيع أن يتجرد قليلا قليلا من سطوة النشوة الطاغية ثم يستقبل النغم بأذن حساسة ، أذن فنان تعرف كيف تميز اللحن واللحن والصوت والصوت ثم تحكم لما سمعته بأنه بالغ ذروة الكمال الفنى وسماءه ! . . . فلقد كان الرجل خبيرا فى الغناء عارفا بضروبه ، وفى حياته كلها لم تستمتع روحه بمثل ما غنته إذ ذاك فريدة . . .

كانت نبراتها الذهبية تردد وعينها على الأمير :

أهابك إجلالا وما بك قدرة
على ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل أنها
قلتك ولا أن قل منك نصيبها

فكانت الحجرة نفسها تكاد تستجيب للنغم ! . . وكان الأمير لا يستقر به مجلسه من النشوة كأنما سبح سريره على بركة من الزئبق ! . . وكان الفنان كالوثن ، انجذب نظره إلى فم الفتاة لا يطرف هدبه ! . .

وبهتت دكنة الليل . وكف البلبل فلم يغرد عساه يقبس بعض سحر الترنيم . وأقبل موكب الفجر من المشرق مسرعا لينصت ! . . أما الخليفة

فقد ذهب شوقه ، وذهب قلقه ، وغاضت ضراوة نفسه كلها ثم ذاب كيانه الآدمى فى اللحن ولم يبق منه إلا صفاء . . . ولم يكن ابن الحرث معنيا بما حوله ، بل انشغل هو الآخر بهذا النعيم السمعى حتى عن كأسه . وعندما كان الوتر يعزف آخر ترانيمه كلفظة السراج آخر خفقاته المتوهجة قبل الخمود ، وراح صوت الفتاة يخفت ثم يذوب فى الهدأة ، كان الفنان فى غمرة نشوة وادعة تفترت لها أعضاؤه كما فى حلم ! . .

لكنه انبعث بغتة كالمبهوت من هذه الوسنة الحالمة على ضجة وصرخة وصوت هادر كأنه زئير . ونهض واقفا وقد استيقظت مخاوفه ليرى الفتاة طريحة تبكى تحت قدمى الأمير وعودها المترنم قد انتثر حطاما . . . لو درى ابن الحرث لعرف أن وحش الفلاة فى صدر « الواثق » قد انفلت طاغيا بعد إذ تحرر من قيود الأنغام التى كبلته ! . . لكنه كان من نشوته الحالمة فى شاغل فلم يشهد الوجمة التى كست بعد الغناء وجه الأمير ، ولا القسوة التى تنقبتها ملامحه ، ولا الضراوة التى تلهب سعيرها فى عينيه ، ولو قد شهد لرأى « الواثق » لا يكاد يهدأ طربه حتى يفور غضبه فيركل صدر الفتاة ركلة تلقى بها عن سريره تعوى من هول ألمها عواء لم يكفها عنه ما غشى نفسها من ذهول لهذا الجزاء الجائر . . .

وجرت يدفعها الهلع فغادرت الرواق الذى نشرت فيه وداعة الجنة منذ قليل . وتوقف ابن الحرث مبغوتا كأنه صنم ، الآن شدت عينه التى حجر الرعب إنسانيها إلى نظرة الخليفة المسعرة . . . فهل الغيرة هى التى أحالت الأمير إلى مثل هذه الهيئة الزرية ؟ . .

سادهما سكون رهيب ، ثقيل أيما ثقل على نفس الفنان ، تسبح فى طواياه شياطين الحدس والوساوس . فما يحسب ابن الحرث إلا أن مولاه قد شهده وهو يعلق عينه بوجه الجارية فظنه افتتن بها عن عشق لا عن إجلال . وما ينتظر إذن إلا أن يلقى هما واصبا وألوانا من العذاب تكفكف بعض عذاب الغيرة التى لابد راحت تنهش قلب الخليفة المنهوم للبطش ، المخدوع عن حقيقة الحال . . .

وهتف الواثق بصوت خشن هامس :

« يا محمد ! . . »

فوثب الرجل والرعدة تهز أوصاله ، فعلى طرف هذا اللسان يتأرجح مصيره المخوف . . .

« ويحك يا ابن الحرث ! . . »

فسارع من هلعه يهذى :

« أصلح الله شأن مولاى ! . . ولكننى . . يا أمير المؤمنين »

فأسكته بإشارة من يده وقد تبين اضطرابه ، ومضى إليه فابتسم ابتسامة حزينة أعادت إليه بعض الأمن ، ثم قال بصوت خافض رقيق :

« يامحمد . . أرأيت أغرب مما رأيت ؟ . . »

فهمهم حائرا :

«لو شاء مولاى فأمر بى أن أذبح ذبح السائمة قبل هذه الساعة لكان أهون على ! . . »

« وإن مثله — لو أصابنى — لكذاك . . . يا محمد ، إنما وهن جلدى ففعلت الذى فعلته وقلبى مصدوع . . . »

« الذنب كان منها يا مولاى ؟ . . »

فهز الواثق رأسه فى أسى وقال :

« لا والله ! . . ولكننى ذكرت جعفرا ، وذكرت أنها كانت تقعد منه مثل مقعدها منى الآن فلم أطق الصبر . . . »

وخبأ وجهه فى راحتيه ، لعله ليخفى دمعة غالبته نخشى إن غلبته أن تنال قليلا من شممه وهيبته وجبروته أمام صاحبه ، أو لعله ليخفى عن بصره مشاهد من الماضى الذى كانت فريدة خلاله متعة لرجل سواه . . . إنها إذن الغيرة ، الغيرة من ميت عفت بقاياه ودرست فى قبره عظامه ثم لم يبق منه غير شبح مريد فى خيال عاشق ! . .

وهمس ابن الحرث محاقتا يواسى الخليفة :

« اللعنة على من أصابنا بالعين ! . . قتل الله جعفرا ويبقى أمير المؤمنين ويعيش . . . »

وظل الواثق عمره لا يستطيع أن يتحرر من ربقه هذه الفكرة التى أضنت ذهنه . بقى شبح غريمة ماثلا دائما فى حياته ، كلما وسعه أن يختلس من زمنه ساعة متعة أطل عليه من خلل ماضيه فأورى بقلبه غيرة هوجاء تحرق حبه لجاريته . . . وكان عزاؤه العزاء كله أن يتلصص عليها فى هدأة الليل ويختلس صوتها الشادى ، اختلاسا عبر الجدران ، وأن يفصل بين بدنها وبدنه إلا فى خياله وأحلامه ، فما اجتمع بها قط إلا جاورهما الشبح

فأفسد عليهما المتعة ، وأيقظ فى الخليفة العاشق تلك الضراوة التى كان يروض جماحها الغناء . . .

وكان ابن الحرث يعجب لأمر سيده ، ولكنه لم يملك سوى الرثاء له ، فما يعرف معرفة يقين أينضم قلب فريدة على محبة أم كانت قينة كالقيان تبذل لمالكها من حلاوة الصوت وطلاوة الحسن وطراوة الأنوثة ما تبذله الأمة للسيد دون دافع من عاطفة . . . إن هذا لسر قلب ، إلى الله موكول كشفه ، وربما تهتكه الأيام . . .

* * *

ويدور الزمان دورته . وتمتد كفه تقرب وتبعد ، وتأسو وتجرح ، وتبنى وتهدم ، فإذا غرام الواثق قد بات غابرا فى الغابر ، وبات شخصه رهين قبر وخاطر ذاكر ! . . . عندئذ خلفه على عرشه « المتوكل » وآل إليه كل تراثه من سطوة ومـــال ونسوة ! . . وكانت فريده إحدى قطع هذا الميراث ! . . .

ولم يكن عجبا أن تسير الأيام سيرتها الأولى ، فالعهد بالزمن أن يتجدد شبابه . . . ولم يكن عجبا أيضا أن يظل ابن الحرث من المتوكل بنفس المكانة التى كانت له من سلفه الراحل ، فهو إلف الترف والمباهج والليالى الحمراء ! . . . لكنه لم يتنبأ قط في ماضيه أن يقف موقفا شبيها بموقف له قديم أوشك أن يغرقه النسيان . . .

كان ذلك ذات أمسية فرغ فيها من نوبته المألوفة فى القصر وفاء إلى داره ليستريح . لكن طارقا أذهب عنه وسنه ، فلما قام يتعرف الخبر أحاط به

جند تجهمت منهم الوجوه وبان فى عيونهم ما يخشاه . . .

وهتف بصوت محتبس كأنما ضاقت عنه حنجرته :

« نشدتكم الله ! . . لعلكم أخطأتم . . . »

فانبرى منهم عملاق قال :

« لا والله ، ولكننا أمرنا فأطعنا ألا نجعلك تستقر على هذه الأرض أو نذهب بك ، يرحمك الله ! . . . »

فكأن رحلة الليلة التى طلبه فيها الواثق منذ أعوام قد أعيدت هذه الأمسية . طاروا بركبه فى ذات الأزقة الملتوية ، بين قتامة الظلام ، يتناوبونه ثلة فثلة وحارسا بعد حارس حتى أفضوا به إلى نفس الرواق الذى بطنت حيطانه بالحرير وفرشت أرضه بنسج الذهب . . . وهناك ، على سرير التمعت على ديباجته بروق الجواهر ، رأى فريدة محتضنة العود كأنما تتهيأ لنشر سحرها الصوتى وإضفاء أرواح الجنة على المكان . ولولا أن تبين فى عينيها دمعة حيرى ، وعلى جبينها عبسة ، وعلى محياها الرائق الجميل خطوطا رسمتها ريشة الزمن بكف العمر لحسب أن ليلة الواثق قد ارتدت بها الأيام ثانية أمام ناظريه . . .

وكان إلى جوارها « المتوكل » فى ذات مجلس سلفه منها ، قد تجهمت ملامحه ، وغامت عينه بسحابة من غضبة تهم أن تفيض . . . فلو تنبأ ابن الحرث بما عسى أن يناله من مولاه على هدى هذا المجمع العابس لما تنبأ بغير شر . إلا أن المتوكل لم يمل له فى السير بحدسه إلى بعيد ، وإنما بادره :

« ويحك يا محمد ! . . أماترى ما أنا فيه من هذه الجارية ؟ . . »

ومد أصبعا مرتجفة تومىء إلى فريدة .

وللوهلة الأولى تبين ابن الحرث ، وعينه تنتقل إلى حيث أشار سيده ، مالم يكن تبينه لحظة دخوله . . . كان ثمة خلف مستقر الحسناء عبد كالليل ، استرخت أشفاره حتى ذقنه ، وغار أنفه الأفطس بين خديه كالكهف ، واندلع من عينيه لسانا نار ! . .

وهمهم وكيانه يرتجف لمشهد العبد :

« أصلح الله شأن أمير المؤمنين ! . . لو شاء مولاى — »

فقاطعه المتوكل وإن صوته لينطلق كالهدير :

أرأيت إلى عبدى هذا ؟ . . إنى منذ غدوة أطالبها بأن تغنينى وهى تمتنع وتأبى على ، فوكلته بها يدق رأسها أو تفعل ، وما كففته إلا عندما سمعت ضجة الحرس وقد أحضروك . . . »

فغاص قلب محمد أسى على فريدة . ولم يدر إذ ذاك فيم امتناعها عن الغناء ، وتأبيها على مطلب المتوكل الذى استطار فى الطغاة عنفه حتى غدت قسوة سلفه رحمة بجانبه ! . . لكنه تخلى عن تفكيره العقيم فى الأسباب التى حدت بالجارية إلى العصيان وراح يحاول أن يجد لها مخرجا من المحنة . .

وأسعفه الخاطر برأى توسم فيه الخلاص لها ، فتقدم على رهبة من الخليفة يسر إليه :

« لو رأى أمير المؤمنين — وفقه الله — أن يدعنى أحدثها . . »

فأطرق المتوكل مليا يتفكر . ثم ما لبث أن نهض عن مجلسه ، وأشار لعبده فتبعه يغادران الرواق .

وأقبل ابن الحرث على فريدة وإنه لحائر كيف يبدأ الحديث . فلما أوشك الكلام أن يضطرب على طرف لسانه ، رفعت هى إليه عينا مخضلة وبادرته :

« كأنك يا ابن الحرث تأبى على ما أنا فيه . . »

« أصلحك الله وجنبك شره »

« بل هو خير رضيته »

فهزته الدهشة ، وهتف :

« خير ! . . يا سبحان الله ! . . أتعصين سيدك وسيدنا وسيد البشر ، وهذا العبد عند رأسك يهم »

فقاطعته :

« إنما سيدى الذى مات ! »

صمت . لو أن صخرة انقضت فهشمت فؤاده فى هذه اللحظة لما أحس لوقعها مثل ألمه الذى أحسه لمنطق المغنية ! . . كانت نبراتها تقطر أسى ويأسا وحسرة ، وكان محياها جامدا لا يبين عن شىء ، وكانت نظرات عينيها ساهمة كأنما مضت إلى الفضاء حيرى تهيم منه فى واد غير منظور . . أفذهنها الآن ترفرف خواطره الحزينة المفجوعة على ركام قبر ؟ . .

وفى التو أطل عليه شبح « الواثق » من سجف الماضى . حضرته ليلته تلك ، وغيرته ، والضراوة الهوجاء قد انبثقت بها نفسه التى عذبتها الشكوك . ألا لو كان عرف سر قلب الفتاة حينذاك !

لكن العاشق المكروب أصبح الآن حبيس حفرة من الأرض

ليست تنفذ إليها المشاعر أو تطولها الفكر والخواطر . صم أذنيه فى دنيا عدمه عن همس الهوى ونجوى الشفاه بالآهة وبالنغمة . سكن فلا شىء غير الصمت ، وما سواه من شىء تستطيع الفتاة أن تبادله الآن ، فعطلت لهاتها ، وحبست شدوها الذهبى فى صدرها ، ونذرت الصمت عن الغناء وفاء لذكراه . . .

وقال ابن الحرث وحديث الفتاة قد ندى عينيه :

« يحلك الله من نذرك ياصاحبتى . بحياة الراحل قومى إلى عودك وأسمعينا . ابكيه إن شئت ، وكفى عنك غضبة الأمير . . . »

* * *

غير أنها كانت جلسة أبعد شىء عن المرح وبهجة السامر . . . هكذا كانت فى عين فريدة ، وفى عين محمد أيضا وإن حسب الخليفة أن جاريته الحسناء قد أسلست أخيرا القياد . . .

ورن الوتر ، هامسا فى البدء كالنجوى ، ثم رافعا كأنه يهتف بشجوه للحبيب البعيد ! . . فى لحنه أحيانا سكون العبرة وأحيانا حرقة الزفرة . . وساد الهدوء نواحى الرواق إلا من عزف المزهر . وتهيأ الوجود للسماع فكله آذان . . . حتى البلبل قد ألقى السمع ، وحتى الليل فثبتت نجومه — هذه الأنجم التى سرعان ما أجلاها الفجر عن أفلاكها ليلة « الواثق » مالها الآن لا تغيب ؟ . . أمن نشوة ؟ . . أراغبه هى فى الاستزادة من سحر هذا التغريد ؟ . أم هو ليل الفنانة المفجوعة فى حبيبها طويل ثقيل ؟ . .

وسرى الصوت الذهبى الحزين :

باتت همومى تسرى طوارقها
أكف عينى والدمع سابقها

وقد سبقها حقا الدمع ، وقد غلبها أيضا شجوها فما استطاعت أن تتم هذا اللحن وصورة الواثق ترنو إليها من خلف قبره كأنما تعتب وتلوم ، أبوسعها أن تتم ؟ . . .

وبغتة شهدها الخليفة قد نهضت ، وضربت بعودها الأرض ، وقفزت تطير مغادرة المكان وهى تصيح :

« واسيداه ! . . . »

ولم يعرف ابن الحرث بعد هذا كيف كان الأمر بين فريدة وبين العبد العملاق . . . ربما القبر يحفظ سرها مدى الدهر ! . .

يوم
يوم عثمان

ما المجد ؟ . .

ما عرش قام على دعائم ، من شعوب وأمم مزقتها الفتنة ، كأنها القصب الأجوف فى هبات الريح ؟ . .

ما ملك هذه الدنيا بأسرها ، وما جدواه اليوم والشباب قد ذهب ، والعمر ولى سوى أقله ، وبقية الحياة نفس خافت كخفقة السراج المريض ؟ . . .

لكن دورة الزمن جاءته بالتاج . . . أقبلت به ، هذه اللحظة ، إليه على يدى رسول من الشمال ، وصل الليالى وقطع المراحل ، لينعى إليه ساكن « الرصافة » .

وبرقت للنبأ عينا الوليد . لم تسبلا الدمع ، ولا غامتا — فالدمع باكورة الفرح وطلع الحزن — إنما التمعتا بالشماتة .

وعندما نهض الرسول من سجدته عند قدميه ، وعاد إلى جواده يمتطيه ، وضربت به حوافر فرسه مشرقة ليزف بشراه بالخليفة الجديد . . . رفع الوليد وجها غائما رهقة شحوبه ، وهمس لرفيقه فيما يشبه الأنين :

« ذهب هشام بعمرى يا منذر ! . . »

فجهد سامعه ليبتسم ، عسى أن يخفف عنه بعض الحسرة على ما فاته من شبابه ، وقال يواسيه :

« بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين . . . »

* * *

غير أنه لا يكون ملقيا باله إلى ترفيه المنذر . فذهنه عنه بعد . . . هو يهيم على متن ذكرياته إلى وديان ماضيه . . . يستعيد للحاضر أيام الصبا الحلوة والزمن حينذاك مقبل والدنيا ناعمة . ويتخلل بروحه مراتع صفوه القديمة بين أبهاء قصور الرصافة ودمشق وما حولها من الأرباض والرياض تحت ظلال أشجار الأرز والنخيل . ويلم بعين خياله الحالم على عهود شبابه الهانىء المستعز فى أكناف مجد أبيه وجاهه الباذخ . . . ليود اللحظة لو انقطع هاهنا حبل خواطره ليعيش هنيهة فى بواكير عمره ! . . لكن ذكرياته تنثال كالسيل ، فتسبح به إلى غرفة يملؤها الظل ، فى جوها رهبة ، وعلى جدرانها القاتمة أوشك الموت أن يخط حكمته ! . . فإذا انثنى الأمير فأرسل بصره من خلال أدمعه ، ثم أدنى أذنه إلى حيث فراش وطريح ، جاءته آخر أنفاس أبيه مبهورة ، تضطرب بينها كلمات خفيضة مكتومة ، كأن قد أقبلت من وراء قبر ، مقطعة الأوصال لايكاد يلتئم فيها حرف بحرف :

« الله يا بنى بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك »

ويلفظ أنة يروح بعدها فى الغابرين . . .

* * *

تلك ليلة غرست الحزن فى فؤاد الوليد . وما كان ليلقى بعدها الليالى إلا ونفسه حسيرة ، والهم يغلبه على بسمات شبابه ومرحه . . . كانت دائما تبرز إليه — كل أمسية — وفى يمينها كأس الحسرة ، وكان دائما يذوق من شرابها المرير ! . . هو لم يفقد فحسب خلالها عطف أبيه . ولا العزة التى كان يفيئها عليه . ولا راحة الخاطر وهدأة البال . إنما فقد هذا كله ، وكثير سواه — فقد نفسه ! . . وإنه ليبيت بعدها وديعة فى يدى هشام. ثم يصبح ملهاة . ثم يغدو نواة يلفظها عمه العاهل الجديد فى التراب ! . .

لكأنما قد كان هشام موكولا بعهد سلفه يوليه نكثا ، وبالأمير اليتيم يوليه خسفا ومذلة ! . . فلا يكاد يمضى يزيد وتحتويه حفرته حتى يتنكر هذا الأخ المسيطر لعهده . . . إنه ليتنقص قدر الفتى فى مجالسه ، بين السادة ، لتذهب سيرته مضغة فى أفواه الدهماء . ويتلقف له من هنات شبابه مايذيعه فى الناس ، مضاعفا أضعافا ، مؤلفا آلافا ! . . فإذا أنس بالخمر ساعة فعربيد . وإذا شاقه الحسن ففاجر . وإذا لها فزنديق . . .

ومن خلال غمائم هذه المهانات التى لبدت سماءه ، لم ير الوليد فرجة تريه شمس آماله . . . كان يسير فى ظلمة . وكان السحاب فوقه يرميه بوبل كالويل ! . . فما هى إلا فترة ثم بايع الخليفة لابنه مسلمة دونه وأقصاه ، وأصبح ابن يزيد أنأى عن تاج أبيه من خادم هشام ! . . ثم مضت فترة جديدة حرمه بعدها عطاءه وأنكر عليه ما لم ينكره على الأوشاب والحثالة كأنما أراد استذلاله بسلاح الحاجة . . . ثم أمعن فى نكاله فشرد عنه خلانه وأصفياءه ، يسجن منهم ويجلد ، ويؤذى فى الأبدان والأرزاق . .

ويرفع الأمير الصغير إلى السماء عينا دامعة ، وقد هاضت روحه وكاد نبع إيمانة بالعدالة يجف من قلبه . . . يرفع عينه إلى السماء ويقول :

« من يثق بالناس ! . . ومن يصنع المعروف ! . . . »

* * *

كل هذه الكؤوس المرة ذاقها الوليد . . شربها مترعة طوال عشرين عاما من حياة عمه استنزفت العمر . وطالت كالدهر . فلكم سامه فيها هشام ! . . وكم أتبع المحنة المحنة ، والنقمة النقمه ! . . ثم لم يكفه سوى الموت . . .

وها هو الآن . . . ها هو اليوم يمضى إلى الأرض ، تحتويه منها حفرة مظلمة ينحل فيها جبروته الطاغى ، ويترك تراثه للوليد المعذب الشريد . . . هاهى دورة الزمن تجىء أخيرا وفى وفاضها عرش وصولجان وتاج ! . . فما الملك ؟ . . وما جدواه ؟ . . وما هو المجد المستفاد من سطوة على دولة من القصب تترنح تحت هبات الريح ؟ . . .

هباء وهواء ! . . إنما الحياة فتوة الشباب وقد ذهب شبابه إلى غير مآب . . . سلبه إياه هشام ، وقصفه وقبره ! . . ذهب حقا بعمره وخير أيامه ولم يبق منه إلا نزرا خامدا كرماد النار . . . وأفسد حياته وأقحلها — فحاربه فى صحبه ، وحاربه فى حبه وقلبه — حتى غدت جرداء كالبادية بلا أنيس له فيها سوى ذكريات ماضيه وكأس خمر يذيب فيها همومه ! . .

ويمسح على جبينه الملتهب بظهر كفه كأنما ينفض عنه سمات شقوته .

ويلتمع ناظراه بضراوة وحش مجروح . وتتلظى شفتاه ببسمة صفراء سعرتها الشماتة . . . ثم يهتف لرفيقه — من بين ثنيتيه — كما تفح الرقطاء :

« أما والله يامنذر ، لأتلقين هذه النعمة بسكرة ! . »

***

وأوفى بنذره ذلك اليوم ، فاصطبح بالخمر آنا صرفا وآنا ممزوجة . . . واغتدى بها . وكاد نهاره كله يتقضى وهو سابح على أمواج من السلافة ! . .

وتمضى به الحياة شطرا من حكمه رتيبة رخية ، لا يكاد يمد عينيه إلا قليلا إلى ما وراء أسجاف قصره . . يومه سمر ، وليله سهر . . . دنياه شعر وخمر ، ومجلسه غيد وتغريد . . .

فلعلها روح الشاعر الكامنة فيه أبت إلا الانطلاق والتحرر . . أم هى نفسه الممرورة تثور ثم تقضى بلهوها الحاضر على أحزان ماضيه ؟ . . أم كان ياترى يثأر بهذا العبث من تزمت هشام الذى حاسبه بالأمس وعذبه على هنات شبابه يوم كان الشباب يدفق ماؤه وتفور دماؤه ؟ . .

هو لا يستطيع سوى أن يحس أنه يضيق بالمبالاة ، ويعجزه ذلك الرياء الذى طالما اصطنعه قبله خلفاء بيته من الأمويين ليستروا مباذلهم . فما يبالى أن يأتى فى النور ما يأتونه فى الظلام . ولا يكترث فتيلا بأن تجرى أنباء فتونه حيثما مشت بها ألسن الرواة والمغنين . . . وهذا شعره يملأ الدنيا نشيدا وأغنية ، محدثا عما يستطيب من عيشه :

إنـــنى أشتهى السماع وشرب
الـكاس والعض للخدود الملاح

والنديم الكريم والخادم
الفارع يسعى إلى بالأقداح

إنه إذن يترك روح الشاعر تحلق فى آفاقها على ما تهوى بغير تحرز ولا تستر . . . وينكر الشيب الذى ألم بفوديه وسرى فى شعره سريان النار ثم يأخذ نفسه بكل متع الشباب . . ثم أيضا يمد قلبه بما يذكى ضرامه ويزيد أوامه ، فعلى قدر نهمه تكون نشوته ! . .

ويجيل بصره فى مجلس له ذات ليلة ، وقد التأم من حوله جمع أصفيائه من رفقة صباه ، ثم يحدث شراعة :

« . . . أفلا علمت أننى ما دعوتك لأستفتيك فى الفقه ، ولا لتروى الحديث ، أو تقرئنى القرآن ؟ . . »

ويبتسم . ويعلم السمير ما يبطن مولاه فيقول :

« لو فعل أمير المؤمنين لوجدنى فى هذه خير جاهل ! . »

« فحدثنى عن الماء . . . »

« هو الحياة ، ويشركنى فى شربه الحمار ! . . »

« وما قولك فى اللبن ؟ . . »

« ما رأيته قط إلا ذكرت ثدى أم شراعة فاستحييت ! . . »

« فالخمر ؟ . . »

فيلوك الرجل هنيهة لسانه ، ويبتلع ريقه ، ويجيب وقد توهجت عيناه :

« تلك السارة الباردة . . شراب أهل الجنة ! . . »

عندئذ يصفق الوليد يدعو غلمانه . فتدور الراح ، وتذيع أنفاسها في جو رواقه مختلطة بأنفاس قيانه وجواريه . . .

ويشدو له عمر الوادى ، أنيس لياليه ، وقلوب السامر ترقص على موسيقاه :

اصدع نجى الهموم بالطرب
وانعم على الدهر بابنة العنب
أشهى على الشرب يوم جلوتها
من الفتاة الكريمة الحسب
فهى بغير المزاج من شرر
وهى لدى المزج سائل الذهب

لكنه يعبها صرفا تلتهب لعلها أن تأكل بنارها شجرة الهموم . . . وتكون ليلة ! . .

* * *

غير أن الصباح جاءه بهمه ! . .

يا لقلبه الحائر الذى يضنيه ! . . إنه ليشرد به ويجمح ، مرة هنا ومرة هناك ، ثم لا يستقر . . . كان من قبل يحسب أن الكأس تنسيه ، والغناء يلهيه ، وعشرة الحسان فيها بديل وترفيه ، لكنه الآن قد علم أن وجده لاينى يلاحقه ولا يكف قط عن التعلق بأذيال خياله وإن فر منه إلى الغيد والغناء والسلافة . . .

الأيام التى قضاها على عرشه لم تحصنه أمام حبه بقوة ، ولم تعنه عليه . إنما يرى نفسه تنزلق من ملاكه ، وتنساب مسوقة فى هواه . . . ولو وسعه

أن يحسم أمره لكان أجدى عليه ، ولكن قلبه كان كالقارب بلا ربان ، تضربه اللجة بلجة ، ويسلمه المد إلى جزر ، وكلتا ضفتى أمانه بعيدتان !...

ويدع برهة خواطره القلقة ، ويصطنع الحزم ، ثم يدعو غلامه :

« على بأشعب . . . »

فإذا جاءه هذا الذى ذهبت بشراهة نفسه الأحاديث ، قال له :

« أنت سفيرى ، ولك عشرة آلاف . . . »

فتبرق عينا الجشع ، ويمد له كفه قبل أن يجيبه :

« حتى يلمس المال جلدى ! . . »

ويضحك الوليد ثم يمده بما يسد بعض شرهه ، ويقول :

« سر إلى سعدة ، فقل لها عنى :

أسعدة هل إليك لنا سبيل
وهل حتى القيامة من تلاق ؟
بلى . ولعل دهراً أن يواتى
بموت من حليلك أو طلاق
فأصبح شامتا وتقر عينى
ويجمع شملنا بعد افتراق »

* * *

سعدة ؟ . .

أما زال حقا يهواها قلبه ؟ . .

حين يعود لماضيه يرى سعدة قد ملأت عليه حينا آفاقه . . . كانت

زوجة مثلى . وفت له . منحته من حسنهـا ومن صباها . أولته صدرها وسادا لرأسه الذى ألهبته الهموم . . . كان يحن سـاعة إلى جواريه فلا تنكر حنينه ، فإن هو إلا لهو لا يفسد قلبه ولا يشوب حبه . . وكان يركب البادية يوما أو بعضه ، يصيد الظباء ويلقى النساء ، فيكون خيالها هناك حارسه ، ويكون مؤنسه . . . وكان دائما يرسل بالغزل قوافيه ، فتتيه ، إذ هى إلهامه . . وعندما تضيق عليه محنته ، كان يأتيها باليأس فتأتيه بالرجاء ، وبالعبسة فتحتال لتغدو بسمة ، وبالدمعة الحـائرة فتردها بقبلة ! . .

ما من شىء حسبه أيام محنته تلك يستطيع أن يسلبه سعدة ، لا من خير ولا من شر ، إنما صحبة موصولة ، دائمة على الزمان . . . فلقد أقفرت حياته من خلانه وبقيت هى له ، وأقفرت من آماله فأشرقت بشاشتها . . . هو لا يقوى على أن تغيب من عالمه لأنها عالمه ، ولا عن عينه لأنه يرى بها النور من بين قتام أوصابه ، ولا عن قلبه وهى بقية آرابه ... وعندما غابت ساعة — تلك الليلة — عند أبيها تعوده ، أحس الوليد أنها غابت العمر . . . وإذ أخذ طريقه يلحق بها ، لم يكن همه إلى المريض ، بل إليها وقد شاقه نحوها حنينه . . وحين دخـل الدار كان قلبه يسبقه ، وكانت روحه تضطرم بشوقه ، وعينه الظامئة إلى محياها الباسم تذرع المكان فى لهفة لتلقاها .

ولقيها هناك جالسة فى نسوة من الأهل بينهن أختها سلمى . . فما إن رأينه حتى هممن يخلين الحجرة . . ونهضت هى إليه تستقبله ، وقامت أختها فى أثرها تستتر من حياء خلف اللواتى حولها من النساء . . . ولم يكن

هو فى البدء ملقيا إلى الفتاة باله ، لـكنها برعت الجمع طولا ، وأضاء حسنها أمام عينيه . . .

ولمحها — لمح الصبية وخشعت عيناه ! . . وانفلتت أمامه الفتاة شاردة حيرى ، تجرى كالظبى . .

وعجب للزمن أتستطيع يده أن تنضج الحسن مثل هذا النضج وتصقل رواءه ! . . فعهده بسلمى طفلة ، صغيرة كالدمية تتخطاها العين . أما الآن . . . . . .

وأغضى ثانيه . وضم جفنيه يحبس صورتها ! . . ثم تماسك ليخفى ترنحه .

إنها لمتعة ! . . متعة هذه الصبية لـكل جارحة فيه . . . لونها خمر ، وطرفها سحر . على ثغرها تشـــدو النشوة ، وفى بدنها تفور الأنوثة ! . .

وعندما خلف الوليد دار سعيد بن العاص ، ورجع منها إلى قصره . . لم تكن سعدة أنيس خلوته ، وإنما بات يشرب خيال سلمى فى كأسه ! . .

* * *

لم تعد الحياة تحلو له — بعد ليلته تلك — إلا فى خلوة . ففى الوحدة تعيش أحلامه . . . وكانت الخمر فى الليالى أنيسه ، وطيف سلمى جليسه ، والقوافى بثه ونجواه . . .

إن نفسه غدت كالجناح ، قلقة تضطرب ولا تعرف السلام . وإن روحه لحائرة ، كأنها القافلة الضالة فى متاهة الرمل أيما لمعة بدت لها فى الأفق الرحب حسبتها دارة فيها جنى وماء وظلال . . .

وكانت فكرة سكرى . هو فى دنيا وسيعة من شعوره لا يحدها خاطر . . . قلبه يغنى ويبكى . عينه تأتلق برهة ثم يغشى صفاءها ضباب . نجمه يتلألأ ويغيب . . . كل ما حوله لا يبث فى فؤاده قليلا من الأمن وإن زوده ساعة بالرجاء . وكان غده عن خياله بنجوة ، بعيدا غائر البعد فى ألفاف المجهول ، حالكا كليلة ضريرة . . . وهذه الدمعة التى شربها فى كأسه لم تجف معها أحزانه . ولا البسمة التى انعكست على صفحة الخمر آذنت بفرحته .

فإلى أين تدفعه رياح قدره وتحرك سفينه ؟ . . وما لشاطئه قد احتبس عنه مرآه ؟ . . . وكيف يرسو إلى ضفة الطمأنينة ؟ . . إن قاربه النشوان يهتز فى أنواء عاطفته ويرتجف ، كأنه وريقة الخريف . تضربه لجة وتجذبه لجة . ينساب ويترنح ثم يترنح وينساب . وهاهو ظلام القلق يتكاثف عليه . وريح الحيرة تعصف بشراعه . . . ها هو قد عاد ثانية يشق السبيل بين أمواج أفكاره . . ها هو يسير ، يدافع ، يصارع ! . . ثم يضطرب ! . . ثم يترنح ! . . ثم يميد ويميد ويميد ! . . .

لكنه لا يبلغ القاع ، ولا يلقى به مراسيه . ثمة أنواء دافقة تعلو به وتحمله . وإنه لينساب منها على نوء ، وتنطلق به الريح رخاء . . . كفت العاصفة حدتها ، وهدأ الإعصار ، وانبسط الماء كمرآة . . .

ويرسل الوليد عينا على ما حوله ، بعد هذه الليالى من الصراع العنيف فى روحه الحائر ، فإذا هو مضيع وحيد . . . ويضطرب قلبه كما اضطرب هدبه ، ويهتز كيانه كله من ألم ومن ندم . فقاربه ما أبحر وإنما أصحر ! . . .

مضى به إلى غير ضفة غرامه . فها هنا تحته رمال . وثمة شاطىء فسيح ، ومرسى مهجور ! . .

هذا كله انقضى به كأنه فترة من حلم ثقيل بغيض أعقبته يقظة موحشة . . فسعدة لم تعد له . طلقها فى ليلة من ليالى صراعه النفسى بين عقله وعاطفته وفرغت منها دنياه . ولم يدر كيف فعل ، ولكنه الآن أيقن أنه جعلها قطعة من ذكرياته ! . . وسلمى لم تصبح له ، فقد أباها أبوها عليه . أم كان يحسبه يرضى حين ذهب يخطبها منه ، وينبئه أنه أخلى لها فراش أختها إلى جواره ؟ . . .

* * *

وفاضت لياليه بالخمر والشعر ، وامتلأت أيامه بالادكار . . . لكنه لم يغلب قلبه على حبه ، ولا ضميره على ندمه . إنما سارت الأختان كتفا إلى كتف فى بيداء أفكاره . . .

ولقد عجب عندما بدا له بعد حين أنه يحن الحنين كله إلى سعدة . . . يحن لبسمتها التى أنارت ظلام شقوته السنين الطويلة ، ولقبلتها التى جف على وهجها ندى دموعه ، ولعينها التى طالما التمع فى صفائها رجاؤه . . . أقد سلا سلمى ؟ . . أم هواها فى فؤاده خمد هونا سعيره تحت ما بقى من رماد عقله ؟ لو علم لرأى فى قصيده الثغرة التى نفست قليلا عن وجده . فيا طالما عاش معها فى شعره . ناجاها وناجته ، وناداها ولبته . وكانت ليالى نشوته هى مغانى التلاقى ، يساقيها الهوى خلالها وتساقيه . . .

لكن أويقات صحوه القليلة كانت تباعد بينه وبين عرائس خياله

فلا يلبث ذهنه أن يكر عائدا إلى فردوسه المضيع ، حيث عشه الذى يظله السلام ، وعشرة ماضيه ، والليالى الخوالى التى أشاعت فيها الزوجة المثلى عبير الطمأنينة . . .

نفسه لم تكف حنينها لسعدة ، ولم تكتمه عنه . إنما راحت تدفعه لها على أجنحة روحه التى عدمت الأمان وظمأت إليه . . . وإنه ليذهب المذاهب ينشدها ، ويفتن فى إرضائها ، ويبذل الندم ألوانا ليلقى عندها المغفرة . . . غير أن جرح عزتها كان داميا ليس فى الندم دواؤه ، عصى برءه عزيز شفاؤه . فإذا هى تمضى عنه ، توسع الفرجة التى تفصلهما ماوسعها أن تفعل . . . كانت تفر منه ، وترد رسله ، وتصم سمعها عن توسله . وحين حسب ذات يوم أنها وشيكة الرضاء ، غفرانها قريب ، كانت هى تضحك ساخرة منه إذ اعتصمت منه بزوج كريم وعش جديد ! . .

وحزن الوليد كيفما وسعه أن يحس اللوعة . وغضب وثار كالعاصفة . لكنه لم يستنم ليأسه وإن فرغت — إلا منه — دنياه . إنما ركب عناده وطاردها لعله يظفر فيجبر كبرياءه الكسيرة . . . وها هو الآن ، والدنيا تقبل ، وتاجه على جبينه ، وصولجانه فى يده التى تستطيع أن تبلغ أقصى الأبعاد ، يدعو سعدة لتشاطره عرشه . . .

وعبست من حنق وموجدة ، وعقدت جبينها وهى تصغى إلى رسوله ثم صاحت بفتيانها تقول :

« إليكم الفاسق ، رسول الفاسق فخذوه ! . .

وهموا أن يعصفوا بأشعب ، لولا أن هتف بها فى تخاذل :

« ياسيدتى . . إنما الرسل أمنة ، وقد كانت سفارتى بعشرة آلاف ! . »

فكأنما أشاع فى وجهها البشر أن رأته لاينسى ساعة الخطر جشعه ، فكفت غضبها ، وقالت تحذره :

« لأقتلنك أو تؤدى عنى كما أديت عنه . . »

« أفعل وكرامة . . . وما تهبين لى ؟ »

« بساطى هذا الذى دنسته ! »

« فقومى عنه ! . . »

وراح يطويه ، وهى تضحك ، ثم وضعه إلى جواره . . .

ومد إليها سمعه ، يلتقط رسالتها ، وقد تهيأ للرحيل . فقالت وعلى شفتيها نفيض أخلاط من السخرية والحقد والشماتة :

« قل له إذا أتيته :

أتبكى على لبنى — وأنت تركتها —

لقد ذهبت لبنى ، فما أنت صانع ! . . »

* * *

أكذلك إذن تمتهنه ، وتحتقر حنينه ، وتدير ظهرها زهادة لملكه الوسيع ؟ . . .

غلالة من التيه تغشى عينيه ، وتلف كيانه كله ، وتعزله فى عالم بعيد موحش من الحزى تناثرت فيه أشلاء كبريائه . . . ليس قلبه الذى يدمى ، ولا روحه الجريحة ، ولا هيكل القيم الخلقية فى ضميره هو الذى اندك وتحول صرحه إلى حطام ، بل هو عقله الذى قاسى المحنة عاد متجردا

من غواشيه — ذهب ظاهره ، وبقى جوهره وإنه للوثة أنبتها الشعر وروتها الخمر لم يبق لها الآن ما كان يكبح بدواته . . .

ويرفع إلى وجه أشعب عينا كأنها قطعة من الجحيم ، ويخاطبه في هدوء رهيب والمر يقطر من بين شفتيه :

« ما أنا صانع ؟ . . فأنت لا تدرى — وأنى لك ! . . »

ثم تتقبض كفه العاتية على منكب الجشع تكاد تهده وما ونى المارد الثائر فى أعماقه ينفث حديثه كسم الثعبان :

« . . . فإنى إذن ملقيك فى بئر تبتلع جيفتك . . أو رام بك من أعلى قصرى تتناثر على رحبته أشلاؤك . . أو صاك ناصيتك الفارغة بصولجانى ! . . . »

وأطلقها ضحكة مجنونة كالعاصفة رددها البهو ، وأضاف :

« ما أنا صانع يا بن الخبيثة ؟ . . قد علمت منى ، فاختر الآن ما أنت صانع ! . . »

لكن أشعب كان كالصخرة ، لم تنل منه جنة العربيد . فأجاب بلا مبالاة :

« ما كنت لتفعل يا أمير المؤمنين . . . »

« ولم بحق أمك ؟ . . »

« أتعذب عينين نظرتا إلى سعدة ؟ . . »

فأخفى الوليد عنه وجهه . . . لعله الماضى عاده ، وصورة الشاردة ، وعشهما الآمن القديم . . .

وعندما رفع عينيه ثانية ، كان لمحه صافيا حزينا ، غاضت منه اللوثة وقر السلام .

وهمس والأسى يحرك نبراته :

« أفلت ويحك ! . . فاخرج عنى قبل أن يعاودنى مسه ! . . »

وخلا بعدها رواقه إلا منه ، وكأسه ، وخيالات ذكرياته . . .

* * *

لـكن الخمر ، ومجلس اللهو ، والغناء لم تصم سمعه عن الأصداء التى راحت تتردد فى آفاقه مدوية . . . سخرية سعدة لا تنى تلاحقه ، وجرس ألفاظها المرة يرن فى أمسياته وأيامه . إنها أزيز . طنين دائم فى أذنيه يعلو ويخفت ولـكنه لا ينقطع ولا يتلاشى . فى رنة القدح بالقدح يسمعها ، وفى خرير الصهباء ، وفى ترنم العود : « ذهبت لبنى . . ذهبت ! . . ذهبت ! . . ما أنت صانع ! . . ما أنت صانع ! . . صانع ! . . صانع » طنين . . طنين . . . طنين ! . .

هنا ينفلت المارد العربيد من ملا كه ، ويمضى يطأ بقدميه ، ويهشم ، ويحطم ما أبقى له الحنين من ذكرياته . . . فلقد آن له الآن أن يثأر لـكبريائه الطعينة . . أبته سعدة ، ردته ، تحدته . . . فليرها إذن كيف يكون تحديه . . .

ومن تلك اللحظة جيش الوليد كل ما فى مقدوره لتملأ سلمى فراش أختها إلى جواره . ولم يعوزه العناد ، ولا قصرت عنه الأسباب من ترهيب وترغيب لا يبرح يعالج بهما سعيد بن العاص ويروض جماحه ليفوز منه بالصغيرة

الجميلة . . . كان همه أن يظفر ، فى الظفر بلسم جراحات كبريائه الدامية وقلبه الطعين . ولئن نشد هذه الغلبة ليروى عاطفته ، فلقد نشدها كذلك ليكبت سعدة ، وليؤرقها الليل ويهيج عليها ادكارها فى النهار حين ينال من استعلائها وصلفها ، ويحرك فى فؤادها الهادىء الآمن غيرة الأنوثة . ونشدها أيضا لأنها ثأره من هشام — غريمه القديم — عسى أن يقض بها على عظامه الرثيثة مثواها فلا تستريح ! . . أو ليس قد بعث إبان صولة إلى أبى الفتاة — لما خطبها العاشق لنفسه بعد أختها — من يقول :

« أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ، يطلق هذه وينكح هذه ! . . »

لسوف يستفحل ! ولترين هذه الرفات فى حفرتها أنه سيفعل ! . . وليظفرن المحب بالحسن الساحر الذى رد فيه فتوة الشباب وفتونه وأرسل قلبه يصوغ الهوى الفياض فى أهازيج . . .

* * *

ومضى به صدر حكمه ورائده سلمى ، ووسيلته إلى لقائها خياله لا يكف لحظة عن الخلوة به ليتفرد معه بعرائس الشعر التى تطوف به دنى من العاطفة وسيعة يضل فيها حرمانه ! . . .

وأيده أخيرا فى كفاحه التاج والعرش والصولجان ! . . أثمر جهده ، وأفاء عناده عليه ما تمناه . فلقد استجاب له سعيد بعد تأبيه ، وأخرج الدرة التى طالما هفت لها عينه وشغلت لبه واشتهاها قلبه . . .

عندئذ تعود للوليد كل أيامه السوالف ، والخوالى من لياليه ، ناعمة الآن لا ظل فيها لمحنة . . وتعود خفة شبابه وحمية صباه . . وتعود قبل

هذا جميعه بسمات دهره وبشر عمره وكانت قبلها قد ولت منه فراح يلتمسها فى ثمالة كؤوسه .

ويقف — تلك الليلة التى عدلت عنده الدهر — لا يستقر من فرحته ، كأن على قارب داعبته أمواج سكرى ، ولعبت نسمات رقيقة عابثة تدغدغ شراعه . . . ويتطلع هنا وهناك ، بناظرى شوقه ، يتعجل لحظة الزفاف . وإن قلبه لينشره حنينه ويطويه ، ثم يهتف فى هيام ولهفة :

خف من دار جـــيرتى
يا ابن داود أنسهـــا .
أو لا تخـرج العـــروس
فقـــد طـال حبسها ؟
قـد دنا الصبح أو بدا
وهى لم يقض لبسهـــا

لـكنها تبدو له قبل طلعة النهار ، فاتنة مجلوة ، كأنها البدر فى الأمسية الصافية لم تغش سماءها غيمة . . ويشرق الحسن فى محياها ، ويتألق البشر فتستضىء بهما أحناء نفسه المنهومة إلى الهوى والجمال ، ويغنى قلبه وترقص أوصاله . . . كانت حياته قبلها فراغا من العاطفة فملأته ، مترعا إلى الحافة ، ليس ينضب ولا يغيض . . وكان فؤاده يعيش به فى عالم مهجور موحش فجاءه رفيق . . وكانت عينه تدور تائهة بين غواشى من الظلمة دكناء كثيفة وها هو سنا شعاعها اللألاء يهديه . . .

لم يضع إذن سدى عمره ، ولا ذهبت أعوامه المواضى بغير جزاء . .

فلقد قسا به الزمن كى يستطيب الحنو فى إبانه ، وأظمأه طويلا ليستعذب الشراب ، وحرمه ليستمرىء المتعة . . . ولو لم يأته بغير سلمى لكان له فى قربها الغناء كله عن الدنيا وما حوته من مباهج ، فكيف وقد أتاه بالملك تنبسط رحابه ، والهوى ، والنشوة ، ومنية الفؤاد الحالم المستهام ؟ . .

* * *

الجنة الآن تحت قدميه ، حواليه أنسها الذى طالما صبت إليه روحه وشاقها فى زمانه الغابر . قلب معمود ، وحب ممدود . السلام أنبت فى طريقه أزهار الصفو ، وسقاها حتى غدت له ظلة يستفيء بها من وهج الحيرة . .

إنه اليوم مسحور ولا سحر ، نشوان بغير خمر . . . الفتاة وحدها سحره وخمره ، وهى وحيه وشعره ، وهى شغله وهمه ، وهى أمسه ويومه . . . لا عمر له معها إلا ساعته ، بل اللحظة التى تملأ منها عينه ، بل لمحة الطرف إذا تحرك عليها هدبه وخفق لها قلبه . . إنها خطت به بعيدا عن عوالم الناس والأشياء ، بعيدا بعيدا ، إلى عالم جديد كله نور وصفاء ، كيانه فيه وجـــدان ، وجسده روح . . . فلم يعد يحس بالزمن ولا يأبه له ، لا بالماضى وأصدائه ، ولا بالغد وأحنائه . . . حتى الأمل فإنه جفاه فليس بعدها لقلبه رجاء . . .

لـكن حبه لم يمسك الشمس أن تبزغ ، ولا الليل أن تتبدى فى جوانب الأفق ظلاله . . . فلقد ولد يوم ومات ، وحضر ليل وفات ، وانطلقت الدنيا فى فلـكها تجرى على سنن غيرها من الـكواكب . . .

مضت به ساعات صفوه تلتئم وتنتظم يوما فيوما وهو فى دنيا هواه مشغول ، معنى بجنته ، يستمرىء من ثمارها المشتهاة وإنها فى حسبانه موصولة العمر على الدهر ، فياضة الينابيع . . .

ومرت به لحظات من أجل حبه ، قلائل تهون فى الحساب . . . سبعة أيام مضت به كما يعدها الناس ولمعة من البرق فى حسابه ، ثم كان صباح . . .

كان صباح كأنه الليل الأليل ، أسحم أغبر بلون الغراب . . حينذاك كان الوليد قد نفض عنه تفتر النوم ونشوة الأمسية التى انقضت به وسلمى كالحلم ، فسار إلى فتاته ليوقظها ويبدأ معها من هواه أنشودة جديدة . . . وكانت هى فى فراشها كالزهرة الندية ، ريانة نضرة ، قد مسها طل الليل . وكانت على ثغرها الثرى بسمة رقيقة تشف عن لون خمر الحياة فى شفتيها . وفوق جبينها اللألاء نجمة الصبح . وعلى محياها الوادع سلام . . .

ولم تلبه حين ناداها ، ولم يهتز هدبها ، ولم يعل صدرها ولم يهبط . . . كانت ترقد فى فؤادها السكينة . . . كانت نائمة . . . كانت قد اختارت لنفسها الهدوء الذى ليس بعده لجسدها المتوفز إلى الحركة هدوء . . .

ونظر الوليد ، وأمعن ، ثم تاهت نظرته ، ثم شرد معها باله إلى الأبد الآبد الذى اجتازته ، ولم يثب إليه قط . . .

وحين وسعه أن يحرك خياله المبهوت ، ويهز شفتيه ، ويحس بالفجيعة التى ادخرها له قدره ، لم تلن عينه ولم تبتل . إنما رأى جنته ، وقد اكتمل فيها كل مؤتلف ومختلف من ألوان الزهر والثمر ، عدت عليها السماء بحاصب أتى عليها ، ولم يخلف منها إلا بقايا من الخراب . . .

ويهمس لها ، وشفتاه ترتجفان على صفحة خدها الباهت الذى لمسته كف الموت المقرورة — يهمس ذاهلا ، بلا أنين :

يا سلم ، كنت جنـة قد أطعمت
أربابها ، دان جنـاها موضع
حتى إذا فسخ الربيع ظنـونهم
نثر الخريف ثمارها فتصـدعوا !

***

ولا تـكون له بعدها حياة إلا أن يعيش جسد بغير روح . . .

كان خيالا لنفسه ، فى الليالى الطويلة التى أعقبت موتها ، يكاد ينكره صحبـه وخلصاؤه . فالبسمة غاضت من ثغره ، والتألق ذوى فى ناظريه ، والوهن دب فى كيانه . . . لم يبق فيه ما يربطه بدنيا الأحياء إلا حنينه للضجيج ، وشغفه بالحشود من خلانه وقيانه ومغنيه يجمعهم حوله على معاقرة الخمر والسماع . . .

غير أنه كان لا يصبو للصوت إلا إذا شدا بشجوه ، فالغناء رثاء ، والطرب نواح ، وإيقاع الوتر أنين ثكلى مرزوءة ...

وغابت الدنيا كلها عنه ، وغابت أيضاً رحمة السماء ، فليس له اليوم من رجاء فى ملك ، ولا عيش ، ولا عدالة عند الأقدار . بات يسرى كالشبح فى عالم غريب عليه ، بغير قلب ولا روح ... نضبت العاطفة فيه فانقطع ما كان يصله بالبشر ، وجفت الروح فنسى الله ...

وعندما رأى يده — ذات ليلة — تمتد إلى المصحف ، وبصر بأنامله

التى أرجفها السكر والألم والحقد الطاغى تقلب صفحاته ، عجب لفعله أيما عجب ، وأنكره من نفسه . ولكنه مضى وما دفعه إليه قدره وقد قرت فى قلبه — أو كادت — خلجة خيرتهم أن تنشد له فى التنزيل سلوى وراحة . . . أوشك حينذاك ذهنه أن تتبدد عنه لوثته وتبتعد غواشيه ، وروحه أن تستطيب الإيمان . . .

ومد عينه ، وقرأ فى الكتاب الكريم :

« . . . واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ، ويسقى من ماء صديد . »

فكأنما انطلقت عليه من بين الحروف نار تلظى ، لسعته فرمى بالمصحف . . .

وماج صدره حنقا وموجدة ، وتأورت عينه ، واشتعلت أنفاسه اللاهثة . . خرج المارد المجنون من أعماقه ثائرا كإعصار . . .

ولم يتلبث ، فليس يعرف الروية . بل أخذ قوسه ونبله ، يرشق المصحف ، كأنه قد لقى فيه عدوا عاتيا حق أن يلقاه بالصراع ! . وكانت ضحكاته العاصفة تتردد مدوية بين أزيز السهام وهو يهدر ويصيح :

« أتوعد كل جبار عنيد ؟
فها أنا ذاك جبار عنيد !
إذا لاقيت ربك يوم حشر
فقل لله : مزقنى الوليد »

وكذلك حسب أنه يثأر لمحنه وآلامه . . .

* * *

هنا أشرف الخليفة المنكود على نهايته ، وأوشكت أن تنطوى من هذه الدنيا صفحة مخازيه . . فإن هى إلا ليلة وحيدة نامها فى أحضان الشيطان ، حتى طلع الفجر على الناس بعهد جديد . . .

وكانت الأمة قد برمت به ، وضاقت بفتونه ومباذله . وكان أهله أيضا قد سئموه وسئموا فجوره ، فنزا عليه منهم ابن عمه يزيد . . .

ولم يكن الوليد بالرعديد الجبان . ولكن شجاعته لم تغنه شيئا أمام الحشود المجندة . فتفرق عنه أنصاره حين حميت وقدة الصراع ، وارتد هو إلى قصره يلوذ بأسواره ويلتمس فيه بعض الأمان . . .

وجلس برواقه هادىء الجأش ، راسخ الفؤاد . . . إن شيئا قد أخذ يحرك قلبه . لاعجة من لواعج غرامه . . . إن حنينه إلى سلمى يدعوه أن ينطلق إلى عالم من السكينة لا يشوب صفاءه صليل السلاح . . . إن هذه الدنيا كلها هباء — إلا ماتم فيها من قصة هواه . . .

وشدا شاديه :

« دعوا لى سليمى والطلاء وقينة
وكأسا ألا حسبى بذلك مالا
إذا ما صفا عيش برملة عالج
وعانقت سلمى لا أريد بدالا »

وضم ذراعيه يعانقها فضربتا فى الفضاء . . .

* * *

ثم علا فى الخارج ضجيج الثوار . فما يقعده الآن ، ولما تبق إلا لمحة فى الأجل ثم يخف إلى اللقاء ؟ . . .

وقام إلى الباب ، وصحبه حيارى ينظرون وقد ملكهم الفزع من جسارته ، ثم نادى فى الناس :

« أفيكم شريف أحدثه ؟ . . »

فلما أتاه رسولهم ، قال يسأله :

« ما تنقمون منى ؟ . . ألم أزد فى أعطياتكم ؟ . . ألم أؤد عنكم المؤن ! ألم أخدم زمناكم ؟ »

فأجاب الرسول ، وهو ينقل بصره منه إلى أقداح الشراب :

« بلى . . . ولكننا نقمنا عليك انتهاك ما حرم الله . . . »

عندئذ نكس الوليد رأسه . . . طافت به مشاهد حياته وما انطوت عليه من اضطراب وقلق وحيرة ، وذلك الدواء الأثيم الذى حسبه يبرىء داءه . . . ثم قال باستحياء :

« صدقت والله . . فلقد كانت لى فى الحلال سعة ! . . »

وخلفه . وعاد إلى سامره ففضه . . . وحطم الأقداح . . .

وحين عصف الثائرون بداره بعد قليل ، وهموا أن يجتازوا عليه بابه ليقتلوه ، كان هو قد انتحى ناحية ، بين يديه مصحف ، وفى عينه دمعة ، وبقلبه لوعة غامرة تكاد نارها أن تأكل خبائثه . . .

وتعاوروه بالسلاح فى مجلسه ذاك . . .

وعندما رقشته الجراح ، طافت بعينيه بارقة رضاء وبشفتيه بسمة إيمان ، ونفثت لهاته مع أنفاسه الأخيرة :

« يوم كيوم عثمان ! . . »

ثم مالت رأسه ودمه يسيل على الكتاب الكريم كأنه دموع قلب بكى لعله ينال الغفران ! . . .

الأندلسيون

من شرفة قصره بقرطبة رنا إلى بعيد . بعينه وذهنه رنا . إلى أغوار البعد . عبر النهر الذى التمعت على جبينه بشائر الشروق كالغرة . خلال النضرة التى رقشت ضفافه . وراء « الربض » الذى شهد أبوه فى دياره من أعوام محنة أوشكت أن تحطم التاج . . .

إلى حيثما وسع لمحه أن يمتد كان طرفه يسبح . فى السحر كما فى الشفق . فى النور كما فى الظلمة . فى إشراقة النهار كما فى شحوبه وغروبه . . . وكان دائما لا يمل السباحة ! . .

إلى حيثما وسع ذهنه أن يسرح كان مرتاد أفكاره . بعيدا عن أندلسه . بعيدا بعيدا خلف لجة البحر . فى أثناء الصحارى التى ألفت من ساحله إلى الجنوب عالما من التيه . فى بقاع جرى نهرها بينها كالكوثر . فى رياض ترنمت خلال ثمرها الينابيع . . . وكان خياله دائما شراعه ! . . .

* * *

وطرفت عينه مع الضياء . . .

صافحه من الشمس شعاع لاح كأنما على وهجه ركب ، وعير بفلاة ، وحاد يحث المطى إلى منبثق النور ، فهتف به يناجيه :

« أيها الراكب الميمم أرضى
أقر منى بعض السلام لبعضى ... »

ثم ألحت عليه لاعجة من الحنين — ملأت ناظريه بمثل هذا الضباب الذى نثرته على الوادى أمامه يد البكور ، فرمش هدبه ، ورجف قلبه ، وأحس هزة فى كيانه تكاد تطوى تحته الشرفة ، والقصر الباذخ ، وملكه كله الطويل العريض إلى ملاذ أشواقه — وهو يكمل نجواه :

«... إن جسمى — كما تراه — بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفونى غمضى
وقضى الدهر بالفراق علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضى »

* * *

وابتسم إذ ثاب . فهذه ليست بأولى لياليه التى أسلمته للسحر ، ثم للفجر ، ثم للنهار الملىء بالضجيج والحركة . ليست هذه خاطرته الوحيدة التى طارت به إلى المشرق ، عبر البحر ، والبادية ، وجنة النيل ، والينابيع المتفجرة من عليات لبنان ، والجداول التى مدت ظلا وأطلعت جنى فى

صخر الشام ! . . فكم طالما هفا قلبه إلى هناك . كم رحل خياله ، وتعلق باله . وكم شهدته الأمسيات والأيام أليف هدأة طافت به — وهو جالس هاهنا بشرفته — مهاد أجداده ، ومغانى صباهم وهواهم ، ومراتع مجدهم وهو بشوقه مستهام نشوان ! . .

الشرق الذى لم تتفتح عليه عيناه كان دائما منتجع روحه . وبره وحضره . شوكه وزهره . قفره وقصره . . . كل تلك الربوع التى توالت عليها الأجيال ، وتبدلت بها المعالم ، وانتسخت من سجلها اليوم أسطر الحكم وصور الحكام كانتساخ الأحلام كانت مقعدا — والدنيا تقبل — اعتلاه بنو أمية أسلافه وطاولوا به العروش حتى لامست هامهم قباب السحاب ! . .

إنه به لهيمان ! — بهذا الشرق الذى يطالعه بالسحر وبالحكمة قلبه كلف ، وفكره مفتون ، وروحه ظمأى لريه ورياه ، صديانة لنشره وسقياه . يهيم خاطره أبداً فيه وهو ها هنا بدار صولته وصولجانه ، خلال حربه وسلمه . . . فى حزونه ووديانه يهيم . فى رياضه وغياضه . فى نجاده ووهاده . فى قرة برده ووقدة هجيراه ، وفى نضرة مروجه وجدب فيافيه دائماً يهيم ولا يسئمه الليلة بعد الليلة هيام ، ولا يرويه تصور غزا أو أقام ! . . .

* * *

فلعلها الذكرى . ولعلها بادرات الحنين . ولعلها أنفة عز معها عليه — وهو شاب وثاب — أن تظل هذه البقاع الحبيبة فى أيدى أعدائه . . . لكنها جميعاً خوالج راحت ، لا ريب ، تنبعث من نبع الوفاء

بفؤاده . فهو وفى للوطن الأول . وللتراث القديم الذى ضاع . وللسلف الماجد الذى بنى صروحه . . . بل هو أيضا وفى لدينه وربه . وفى لقلبه وحبه . وفى للأصول الأدنين من دوحة نسبه . وعندما نطق لسانه ببثه ذاك الذى صور فى البكور أشواقه ، كان وفيا لمشاعر سميه العظيم : جده عبد الرحمن « الداخل » — الذى خرج من دياره بليل وهو طريد ، ليسكن من الأندلس إلى عزة وتاج — ناقلا عنه بعض حنينه ، مرددا بعده من نظيمه أسطرا بها رنين وأنين ، وفيها لهفة ولوعة ، ومن جرس حروفها ونغم قوافيها تسيل أشواقه التى عزفتها الغربة على أوتار قلبه الحزين المعمود ! . .

وينظر عبدالرحمن . . . ينظر فى صباحه ثانية إلى بعيد . عبر النهر ، والجسر ، والوادى الأخضر ، واليم الأزرق ، والرمل الأصفر . . . وعبر جنة فى أثناء الصحراء أرضها عنبر ، وطلعها جوهر ، ونيلها كوثر . . . وعبر مسرى موسى ، ومجاز فرعون ، وقبر فى بحر ، وشجرة هادية على غصونها نار ! . . فى مفاوز المجد والدم ، وفى منازل الوحى والنبوة خطرت أفكاره . بالأطلس . بطور سيناء . بجبل الكرمل . بغاب الأرز . بالفراتين . بالربع الخالى . . . ومن أرض آمون ، إلى هيكل داود ، إلى الناصرة . إلى قدس الكعبة . . . بعين تسرح وبال يسبح راح كما فى خدر ، ورؤيا حالم ناعم ، وصبوة عان محروم ؛ يسمع ولا نغم ، ويمشى ولا قدم ، ويسكر ولا جام . حتى إذا أبلغه السرى منبثق النور عاود مع الشروق نجواه :

« أيها الراكب الميمم أرضى
أقر منى بعض السـلام لبعضى
إن جسمى — كما تراه . . . »

***

وجاءه الصباح — كـكل صباح — بشاغل جديد .

القصر يموج . . .

الساحة حوله تموج . . .

قرطبة كلها من ورائه تموج . . .

أينما مددت ناظريك رأيت الجموع تنساب ، كأنها وفود الحرم ، فى سمتها شمم ، وعلى جباهها الرافعة كبرياء ، وفى لمح الأعين البوارق لمعة فخر أو شعاع اعتزاز . . . وأينما ألقيت سمعك حسبت خفق القـلوب يلتئم فى كلام ينتظم فى نشيد تنتقل الخطا على وقعه المنغم . . . كانت هذه فرحة شعب يمن عاهله ، وبعزمه الحديد ، وبقدرة له — كبطش القدر — على اقتحام الهول وخوض الغمرات ليقنص النصر بعد النصر . مرة بنار حربه ، ومرة ببرق ذهبه . بالسيف . بالوعد . بالدهاء . . . فى طليطلة فعل . وفى مرسية . وفى ماردة . لم تعجزه مطلقا حيلة ولم يكفه عن الغاية عدو عتا أو عدو هان . بكل ركن من ملـكه . بكل مرفأ وثغر حتى غدا الظفر إلفه وظله ، وغدا الموت خيله ورجله ، وغدت ملاحم القتال والسياسة بضعة من حياته اليومية كالطعام والشراب ! . . .

وقائمه نصر . . .

عهده أفراح . . .

وحين جاءت الزمر ، فوجاً فوجاً ، حشوداً حشوداً ، تولى وجوهها شطر الشرفة ، كانت لتأنس بالأمير بعد غيبة ، ولترفع الولاء ، ولتزجى الشكر على نصر صاغته بالأمس يداه . . .

وعند ما أضحى اليوم ، وعلت الشمس ، وأخذت الوفود تنجاب ، كانت البسمة التى لوحت ثغر عبدالرحمن ، كما لوحت جلده الأشعة ، لا تكاد تنبىء عن قلبه . . . بدا للناس من قليل كالهانىء الذى غسل بالبشر همومه ، وبدا لنفسه الآن كالسابح على طوفان . . .

* * *

فما لهذا الحنين لا يبرحه ؟ . . ما له لا يرحل ؟ . . ما له لا ينضب له معين ؟ . . كل هذه الأعوام لم تأخذ منه : ليالى السمر . عشرة الملاح . ترنم المزاهر . وأيام الكفاح والصراع بين الدماء والوحل ، وتحت الأزيز والصليل ، وفى ضيافة الحر والصقيع . . . حتى البياض الذى لاحت معه بقايا شعره الأسود كالوشم لم ينضب نبعه فبقى يدفق ويسيل . . .

لكنه شرعة قلبه . حنين كدين ! . .

وأشار بيده إلى نديمه زرياب :

« أبا الحسن . . »

فلباه .

« أبا الحسن . . . أما حديث تحدثنيه ؟ »

وعندئذ أشرقت بسمة على المحيا الأسود ، أضاءت قسماته ، كسطعة

البرق من وراء غيمة ، وقال السمير وهو يحدس سأم أميره وما يملأ قلبه من حيرة :

« أنا — يا سيدى — خدين الليل ! . . »

« رب ليلة مبصرة ورب ضحوة عمياء ! . . »

« أما هذه الضحوة فلا ! . . »

فزفر . وأشاح عنه بوجه كدره سأمه . ثم انتحى من الشرفة بجانب يطل به على روضة ذات زهر ونخل وجداول يجول فيها بفكره دون عينيه ، وسنان اللحظ أو كالوسنان ، كليل اللمحة عن غير قصر ، طويل الهدأة عن غير أناة . فلولا أن انساب نحوه سميره كماء الجدول ، وشدا مخافتا إلى جوار أذنه بصدحة بلبل — جاءته من همسماتها الشجية نبرة كأنها تناثرت مع الريح — لما انتبه من شروده ولا ثاب . . .

ترنم النديم :

« يا نخـــل ، أنت فريدة مثلى
فى الأرض نائية عن الأهل »

فتعجلت عينه العودة من مرادها وهى تخطر على السعفات ، وقال فى هدوء حزين :

« ذلك حديث « الداخل » . . . قديم ، عريق ، معاد ! . . »

« إن له فى سمع سيدى لوقعا »

« وفى قلبى . ثما أنى يؤودنى الوفاء — الحنين الذى يهيج أدكارى حتى ليسلمنى الليـــل إلى السحر ، ويسلمنى الفجر إلى ضحوة النهار . . .

ولكننى اللحظة لا أردد عنه ، وإنما أقول ما أنشده الهذلى ذات ليلة طالت به يناجى ليلاه :

« فيا حبها زدنى جوى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
ويا هجر ليلى قد بلغت بى المدى
وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى
وزرتك حتى قيل ليس له صبر . »

* * *

وما كان له صبر . . .

سمر ندمانه ، وغناء قيانه ، وملاحة جواريه تلك الأمسية لم تذهب سأمه . . . فى عينه سهوم ، فى قلبه فراغ . المكان حوله خواء وإن ترددت فيه أنفاس الزهر ، واختال الحسن ، وعبقت الخمر ، ونطقت المزاهر . .

هو الآن بعيد . بنجوة عن السامر . وعن الكاس والوتر . وعن الخد الناعم ، والقد الحالم ، والطرف الفاتر ، والنهد النافر ! . . وعن المشرق الحبيب الذى مثل فى مجلسه بشعره وموسيقاه ، وبنضرة زهره وثمره ، وبطيب خمره وفتنة جواريه . والذى كان دائما شاغل باله ومهوى خياله فى بكوره وسهره ، وفى صحوه وسكره ، وفى سويعات صفوه وأيام جهده

وقلقه وكدره كل هذه السنين الطويلة التى ضمها العمر ورسمت بها ريشة الزمان على فوديه مثل غرة الصباح ! . . .

لكنه بعيد قريب . . . فدونها ستر . هى منه دانية . على قيد هدب . على مد لمسة . على مسرى همسة ! . . هى كالبدر وتحفه منها الهالة . وكالشمس تصله بشعاع . أما رضاؤها فغائر عنه فى الماضى الذاهب كغور الضياء فى الليل الأسحم الذى تضل فيه الأبصار ، غارق فى همومه إلى القاع . . .

حنينه إليها جمرة ذات حمرة وخطف ولهيب ، تنال من قلبه وتسرح . وحنينها إليه شهاب هوى ، فبرق ، فبرد ، فانتثر وذاب . . . ذبل العود . خمدت الشعلة . جف الينبوع ! . .

وذكر أمسه الحلو ، الحبيس فى ذكرياته ، عندما كانت الدنيا تقبل عليه مجلوة إذ أقبلت ، وصفت ، ومالت بشوقها نحوه «طروب» . . . حينذاك الحياة كانت بسمة . الأنس كان جامه . المتعه شرابه وطعامه . . !

ثم ذكر أوبته . وموكب النصر . والأسارى والسبى فى ركابه . وفرحة الجنود والحشود إلا قلبا أضناه هواه ، وآده حنينه ، وهزته الحيرة كما تهز الجبال ثورة بركان . . . إنه ليوشك أن يلين فيجثو ثم ترده كبرياؤه . ويوشك أن يقسو فيجفو ثم يأبى عليه داؤه . وبين هذا النكول والإقدام تقضى به نهاره ، وانفلت ليله إلا ساعة وهى من خلف حجاب ! . .

فمالها تجفوه « طروب » ؟ . .

ما لقلبها سلا ثم غلا فى السلوان ؟ . .

* * *

لو أنها شهدته بين غبرة القتال كيف يستهدى جبينها المتلألىء طريقه ؟ . .
لو أنها عرفت حرصه — من أجلها — على النصر والعزة والأمجاد ؟ . .
لو أنها سمعته يردد — والرحى تدور — اسمها الرقيق المنغم كما يردد العابد الدعاء ؟ . .

لكنها لم تكن هناك ! . .

لم تر فى الغمرة هاديه . لم تسمع نجيه ودعاءه . لم يطف ببالها الخلى — حين الغيبة — شجوه ، ولا شجنه ، ولا شوقه ، ولا حبه الذى رفعها من رقها إلى عرش ذى عراقة ولف جبينها بتاج وهاج . . . وعندما عاد ، تركته يمشى على غصة ، وينفض وحده غبرة الحرب عن ثيابه ، ويمسح بكفه قطرات عرقه ، ويجتر فى عزلته الحزينة — وإن رن العود وكثر السمار — ذكريات صفوها الذى غاب . . .

وجالت روحه فى ماضيه الذاهب . فى كرمة الهوى التى أودى بثمرها ونضرتها خريف الهجران . بين نثائر الزهر وهشيم الأعواد . على ضفة جدولها الجاف . ثم همست له ببثه الذى كان نشيده كل طلعة صبح وهو فى الوغى المشبوبة ، تحت لمعة الحراب ، وفى دوى الصهيل والصليل ، وعلى مسيل الدماء — همست له ، وإنها لباغية ، كأنما لتنكأ جراحه ، وتعكر راحه ، وتترع كأسه بالأحزان :

« إذا ما بدت لى شمس النها
ر طالعة ذكرتنى طروبا

أنا ابن الميـاين من غالب
أشب حروبا وأطفى حروبا
عدانى عنك مزار العـدا
وقودى إليهم حماما مصيبا »

* * *

غير أنها بلا قلب ! . .

أما هو فأوصـاله جميعا قلوب ! . . عاطفته دافقة كالسيل . أشواقه طاغية كالطوفان . وفاؤه كنبت الصحراء دائم الخضرة فى قسوة البرد ، وفى وهج الحر ، وفى نضرة الربيع . . . ولقد طالما حن لها وإن مالت عنه ، ووفى وإن تلقته بالهجر والقطيعة . طالما دلت أو ملت . طالما بخلت بصفوها عليه وإن سخا لها بحنوه وحبه ، وبدره وذهبه . . . وحين لامه ذات يوم صحبه وأهل شوراه وقد أسرف لها فى البذل ، وشاءت أريحية كفه ونفسه أن يهب لها حلية نادرة المثل ، غالية المقدار — ابتسم لهم وقال :

« لابستها أنفس خطرا ، وأرفع قدرا ، وأكرم جوهرا ، وأشرف عنصرا — إنها طروب ! . . »

ومع هذا فقد ألف منها النكران ، وارتضى الدلال والملال ، وطابت نفسه بنزواتها التى كانت دائما تجرعه المر فى الهجـر ما تبين السبيل إلى فؤادها الجموح . كان يمشى إليها على طريق من الذهب ! . .

ورسم بسمة على شفتيه ، خافتة وسنانة ، فيها طمأنينة توارى حيرته ، ثم هتف بسميره :

« من المشرق هات ! . . »

فشد زرياب أوتار عوده ، وسكن الهمس ، وتعلقت على المناسم الأنفاس . . .

وشدا صوت « فضل » على النغم :

« أقصدت زينب قلبي
وسبت عقلي ولبي
تركتني مستهاما
أستغيث الله ربي
ليس لي ذنب إليها
فتجازيني بذنبي
ولها عندي ذنوب
في تنائيها وقربي »

عندئذ تعقد جبينه وبانت على محياه وجمة المهموم . . . عن كبرياء فعل ، ورغبة في الترفع ، وميل إلى التعالى عن ذلة الهوى التي صورها الشعر وأداها الوتر . حتى إذا صمت صوت الفتاة ، وذاب اللحن ، هتف بزرياب كالعاتب :

« أما كان خيرا لو قالت :

أقصدت زينب قلبي بعدما
ذهب الباطل عني والغزل
وعلا المفرق شيب شامل
واضح في الرأس مني واشتعل ؟ »

بلى هو الخير ! . . فلقد كان يرضيه دائما أن يخدع نفسه كلما نأت طروب فيرد نأيها إلى تعففه عن التهالك معها على مباذل الشباب . . .

* * *

ثم غنت « قلم » الرومية :

« رقى بعيشكم لاتهجرينا
ومنينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غد ماشئت إنا
نحب وإن مطلت الواعدينا
فإما تنجزى عدتى وإما
نعيش بما نؤمل منك حينا
أغرك أننى لاصبر عندى
على هجر وأنك تصبرينا ؟ »

فهزه الطرب ، وسأل :

« لمن الشعر ياجارية ؟ »

« للذى قال :

ما نقموا من بنى أمية إلا
أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فما
تصلح إلا عليهم العرب »

وعندئذ هتف :

« ذاك ابن قيس الرقيات والله ، كم من رقية أحب ! . . وإن لشعره لوقعا فى القلب ، ورنة فى المسامع كأنها التغريد . ولولا ابن أبى ربيعة لكان شاعر قريش وحده ، فهات لى منه ...»

فغنته :

« حب ذاك الدل والغنج .
والتى فى عينها دعج
والتى إن حدثت كذبت
والتى فى وعدها خلج .. »

فقطع عليها صوتها وقد هاجت به الفكر :

« كلهن فى الوعد سواء ! . . فهلا عدت لرقية ؟ . . »

فترنمت :

« هل للديار بأهلها علم ؟
أم هل تبين فينطق الرسم ؟
قالت رقية : فيم تصرمنا ؟
أرُقى ليس لوجهك الصرم
ياصاح : هل أبكاك موقفنا ؟
أم هل علينا فى البكا إثم ؟»

* * *

تنهد وقد أوشكت عينه أن تغيم ، ثم تحركت شفتاه :

« لكأنه إثم ! . . »

وإذا بزرياب فى جواره يهمس :

« بل هو سخاء ووفاء ! . . »

فالتفت وفى عينه نظرة حزينة ، إلى سميره الذى يواسيه ، وقال :

« يا أبا الحسن ، إنك تعلم ما أكتم . . . »

«قد علمت . وقد عملت بما عساه يحقق رغبة الأمير . وليأتينك الفجر باليقين . . . »

إذ ذاك استخفته فرحته حتى كاد يرسم من فرط اللهفة على ستر الليلة أشعة النهار الوضاح ! . . لكن زرياب لم يرخ له فى عنان أحلامه ، وراضه بصمته على الصبر ، ثم شغله - حتى عن نفسه — بشدوه وموسيقاه :

« بكرت تحن وما بها وجدي
وأحن من وجد إلى نجد
فدموعها تحيا الرياض بها
ودموع عيني أقرحت خدى
وبساكنى نجد كلفت وما
يغنى لهم كلفى ولا وجدى
لو قيس وجد العاشقين إلى
وجدى لزاد عليه ما عندى »

فصاح عبد الرحمن وهو كالثمل :

« ذاك والله الطرب ! . . »

وعاود زرياب إصلاح عوده للحن جديد :

« خليل لى سأهجره
لذنب لست أذكره
ولكنى سأرعاه
وأكتمه وأستره
وأظهر أننى راض
وأسكت لا أخبره
لكى لا يعلم الواشى
بما عندى فأكسره ! . . »

وأقبل الفجر من المشرق يصغى لنغمه ...

ورددت بعده الأطيار ! . .

« * *

كل هذا الغناء لم يغن عنه . لم ينسه قلقه . لم يبث الرجاء فى فؤاده الحائر . فبقيت البسمة على شفتيه لونا كأثر ، ورسما كطلل ليس فيها حرارة الدماء ! ...

وبدأت شياطين همه تسرح فى النور وتنعب مع الغربان ! .

لم تلن له طروب . . .

وافد زرياب . غلمان الأمير الذين استسفرهم . خصى القصر : نصر ، صاحب الحظوة والسطوة ، وحدين سرها ونجواها — كلهم غلقت دونهم الباب ، فعادوا بالخيبة .

لقد اختارت العناد .

لا قلبه الذى سال شوقا إليها على ألسن رسله ، ولا عروضه التى حملها أفانين وعوده وعهوده ، ولا جبروته وهيبة عرشه وصولجانه نالت شيئاً من عتوها وزهوها وقلبها الأصم كالصخر ، البارد كالثلج ، الجاف كوريقة الخريف ! ..

وآذاهم ما أصابه من ذلة وكسا محياه من أسى الانكسار ، فهتف به من فتيانه غلام يحثه على أمر ، وتحدث آخر بما يراه ، وهمس ثالث بحيلة تروض الشاردة . وعاش هو بينهم ساعة فى مثل خلية يتجاوب بها الطنين .

ولكنه هم وقام يخلف مجلسه ، على عجل ، وبغير ونى إلى ملاذها القريب .

وصفق فدعا خازنه ، وأمره أمره :

« سدوا عليها بابها ببدر المال ! .. »

ومشى إليها على الذهب ! .

ومن خلل الباب الذى اعتصمت به عن حنينه ، كانت تنفذ أشعة نضاره ، وتسرى نجواه :

« قتلتنى بهـوا كا
وما أحب سواكا
من لى بسحر جفون
تديره عيناكا
وحمرة فى بياض
تكسى به وجنتاكا

فقـد قنعت وحسبي

أن أرى من رآكا »

وعندئذ رنت ضحكتها ، فيها صفاء وفيها سـخرية ، وقالت له من وراء الحجاب :

« فابعث إلى بغلام لك ينظرني وتنظره ! ... »

فصاح وهو مبغوت :

« يا ويح لسانى ! . . إنما هو قول ولا أرب . ولو أوتيت بيان شاعر لقلت كمن قال :

قل لمن صـــد عاتبا

ونأى عنك جانبا :

قد بلغت الذى أرد

ت وإن كنت لاعبا »

« كأنني ألعب ! . . »

« إذن أقول كمن قال :

وأبـكى فلا ليلى بكت من صبابة

لباكٍ ولا ليـلى لذى الود تبذل

وأخنع بالعتبى إذا كنت مذنبا

وإن أذنبت كنت الذى أتنصل »

فانفرج الباب عن بسمة فيها عتاب حبيب ، وقالت :

« أكذلك ترانى ؟ . . »

« بل سأقول ، وأظل أذكر وأردد مع الأيام :

أبكى ومثلى بكى من حب جارية
لم يخلق الله لى فى قلبها لينا
هل تذكرين وقوفى عند بابكم
نصف النهار وأهل الدار لاهونا ؟ »

ففتحت له . وهمست كأنما صوتها قد ذاب فى حنينها الفائر :

« يا أميرى ... فلتله الأعين ، وليخل السامر ، فذاك أجمل بالخلوة ! ... »

* * *

ومع ذلك فقولها أحرف ، وصفوها زخرف ، والرضاء الذى تبدت له فيه — من بعد — طلاء ! . . كانت تغضب لتلهب ، وتلهب لتغلب . وكانت تدل لتنال . والليالى الطويلة التى قضتها إلى جواره نسجت فيها من العاطفة الخداعة ، وزيف الهوى ، وفتنة الحسن أحابيل إن تكن قنصت قلبه فعقله الفطن تفلت من عقالها وطار ! . .

خابت الحيل . . .

ضلت الرقى فيه . . .

بطل السحر . . .

لا ثغرها الدافىء ، ولا عينها الساجية ، ولا قوامها الذى يتفجر

أمامه بالاشتهاء قابلت منه إلا خلوة مع الظلمة ، أو نشوة فى السحر ، أو متعة تحت أشعة النهار . أما وطرها الأول المأمول فقد تبدد كضباب ...

وعضت شفتها من حسرة ، ثم دبرت ، ثم أقعت تهيىء نفسها للوثوب كأنها لباة ! . .

وأغفى عبد الرحمن .

وهل تأرقت عين آمن ؟ . .

بل لا ! . . فما يسهد سوى جبان ، أو ظالم ، أو شج — مثله فى الليالى السوالف — جادت بصدها له طروب ! . .

أما هى فلم تنم لياليها . . .

صحوها فكر . نومها سهر . . . كلما لمحت منه فوديه هاجتها الخشية أن يذيبه المشيب فينسرب العمر وينضم القبر على أملها الذى ترعاه . . .

ولم يكن الأمير هذا الأمل .

إنما كلة منه . كلة واحدة ، جهدت عمرها ، بدلها ، بوصلها ، بسحرها ، بهجرها ، بضعفها ، بعنفها — بكل حيلة ووسيلة أن تضعها فى حلقه لينطق بها لسانه فشرق الحلق ، وعسر النطق ، وطالت عليها السنوات وهى مقهورة لا تتبين إلى وطرها السبيل .

أبى عليها عبد الرحمن أن يوصى بعرشه من بعده لابنه منها عبد الله وآثر بكره من ضرتها عليه ، ثم ظل مقيما على إبائه وإيثاره فى إبان شبابه ، وفى ذيل كهولته ، وعندما ذرف به أجله على أعوام الجدب والمحل والفناء . . .

لـكنها رفيقة الحية ، وصاحبة الشيطان !

فلئن فاتها أن تفوز منه بأربها فلم يفتها أن تفسد عنده ، بالنفث والدس والوقيعة ، أمر ولى عهده الذى اجتباه ، وتلقى بينهما الجفوة .

والجفوة نصف الفوز . . .

والمال الذى استنزفتة إياه ثمنا للمتعة هو النصف الآخر .

فبالمال يسهل العمل ، وتنفذ الحيل ، ويشترى الرجال ! . .

* * *

وأنفلتت ذات أمسية من فراشه تزحف فى الظلمة بين أبهاء القصر زحف الرقطاء . . .

ما حاجتها بعد للتلبث والعمر يتسرب إلى قاعه ؟ . .

غمز المال . عشيت الأعين . خربت الذمم . تهاوت النفوس المنهومة تعفر الجباه فى محراب المعبود الأصفر ! . .

وطرقت المرأة بابا قصيا ثم توارت فى الظل . . .

وعلى الأثر برز عملاق ، كأنما انشقت الأرض عنه ، أرسل أنفه تشم الفضاء . فلما اطمأن خرج إلى النور .

همست له :

« نصر . . . »

« سيدتى . . . »

وأسرع صوبها يتساران .

« غدا الموعد . . . أثقل رأسه الليلة سقمه »

« وفى عده ثقلة أثقل ! . . يا مولاتى . آن للرأس بعد هذا العناء أن تستريح ! . . »

فضحكت ضحكة مكتومة ، وقالت :

« يا لك من مارد جامد الكبد لا يرحم ! . . »

« من رحم خار ، ومن خار بار ! . . إنى إذا أصبحت سارعت استقضى ذلك الطبيب الحرانى — »

وعندئذ خنقت كفها الكلام على شفتيه ، وثارت به فى خميج أفعى جريحة :

« ويحك ! . . أما ترى الليل ينصت ؟ . . »

ثم ألقت بدرة من المال عند قدميه ، وزحفت ترجع . . .

* * *

وأسفر الصبح عن السر . . .

أبطأ الأمير عن مجلسه كأنما أضاف للظلمة كسفة مد بها فى عمر رقاده ! . . والتأم رجاله . واجتمع ذوو الشكايات عند بابه ينتظرون ساعة مثولهم بين يدى جبار عادل .

وكانت الضحى قد احمرت حين أهل على الناس ، يمشى كالنائم ، ويرنو كالحالم . فى خطوه الواسع ثقل ، وعلى قسماته الوسيمة شحوب . ومع ذلك فقد أبى أن يركن للراحة من وصبه فيملى لظالم ، أو يفى

بمظلوم . . . إنما مضت ، ساعات نهاره وهو يصغى فى أناة ، ويقضى فى حزم ، حتى ابتل جبينه ، وغامت عينه ، وأوشك من إعيائه أن ينهار . . . وعندما انفض الجمع ، وسكنت الألسن الشاكية ، ومضت به قدمه وهو يتكىء على ذراع نصر إلى حجرته تهم أن تجتازها إلى الدعة والعزلة ، لقيته عند بابها طروب . . .

هتفت وفى النبرة لوعة ، وفى النظرة ارتياع :

« ويلتا لى ! . . . الرفق بنفسك فإنى أراك من جهدك مهيض . »

فابتسم لها بسمة ناضل ألمه حتى لفظتها شفتاه ، وقال فى هدوء :

« بل هى الوجيعة . . . »

« بأبى أنت وأمى ! . . »

والتمعت دمعة فى العين النعسانة . . .

عند ئذ انبرى نصر يقول :

« لوددت أن يقايضنى مولاى وعكة بعافية ، ومرضا بشفاء ! . . لكن عندى قطرات تعلمتها فى صبـاى من راهب عجوز تقتل الألم ، وتأ كل السقم . فلو أذن سيدى — »

فهتفت طروب تبتهل :

« أعجل بالله ! ... »

* * *

وجىء له بالدواء . أصفر كالذهب . عبقا كالزهر . يتوهج لونه فى إنائه كأنه ذوب النار ! ...

كان الأمير فى غرفته ، لم تزل بعد مسحة الشحوب تلون محياه ، وتهز ثباته ، وتغشى وميض عينيه بالذبول ... وبين يديه وقفت طروب ترعاه ، وتحنو ، وتبدى اللهفة . وعلى مبعدة قام نصر وفى يمينه الشفاء .

وكان زرياب من وراء ستر فى السامر . وكانت قلم . وكانت فضل . والجوارى الحسان اللواتى يجتمعن ساعة الصفو . والعود والندامى والراح ...

وكانت الليلة تنسلخ من النور ... بوادر الظلام تناثرت فى جوانب الأفق الأشهب خيوطا رفيعة سمراء راح الغروب يحوكها وشاحا للشفق الأحمر ... الروضة شملها السكون . النسيم فيها فاتر . للورق حفيف كفحيح . للسعف همس كهينمة . النخل والشجر أشباح ... والشرفة التى كانت حين الضحوة مرادا للحركة ، ملأتها الوحشة ، وأغرقها الظل ...

وابتسم العاهل ويده على الستر ، وعينه على يمين نصر ، وصوته إلى طروب :

« نفحة البرء ! ... »

فهمست المرأة :

« فديت مولاى ! ... »

« خمر ولا حبب ، وجمر ولا لهب ، عصرها راهب بيعة ولم يعتقها خمار ! . . هاتها يا نصر ... »

واحتوت كفه الإناء الصغير . حتى إذا هممت قدمه أن تخترق الستر ، التفت يحدث صاحبته :

« سأجرعها من كأسك لأجمع الشفاء والنشوة ! . . »

ومضى إلى السامر يسنده العملاق ...

* * *

سرت لدخوله الحياة فى الأوصال . تفرجت الشفاه عن بسمات اطمئنان . شد زرياب أوتاره . انتظمت الجوارى . تقدم الندامى بالراح .

لـكنه دفع القدح التى امتدت نحوه :

« بحسبى هذه ... »

وأخذ يصب الدواء فى الـكأس التى أقبل بها من وراء الستار . ثم مال إلى الخصى يسأله :

« قطرات منها يا نصر ؟ . . »

« كلها أيها الأمير قطرات . »

« على اسم الله ! . »

غير أنه لم يدفعها إلى شفتيه . فى هدوء رهيب امتدت يده إلى فم العملاق الجاثم إلى جواره ، وقال :

« اشرب ! . . »

« سيدى ... إنما هذه — »

« اشرب ! ... »

اشرب بكأسهم وإن
نقعوا به السم الثميلا ! »

وكانت عينه وهو يهدر على الستر ، تكاد تخترق نسيجه إلى أنثى خلفه ، ذات قلب جامد كالصخرة ، فارغ كالطبل ، بارد كالجليد ! . .

وصرخ المارد وخار ...

ثم أن وشرب .

ثم فح . ثم تلوى كأنه أفعوان ...

وعندما همد بدنه ، وسكنت أنفاسه ، واحتمله الغلمان بعيدا عن عيون السمار ، هب عبد الرحمن كالليث الغاضب ، يلتمس الستر ...

لكن أنينا خافتا وراءه رده عنه ، وصوت نشيج مكتوم ، ورنة بكاء . . .

وعندئذ هزه وفاؤه . غزا قلبه ، وغسل غضبه ، وأعاد أمامه كل نعيمه القديم ، وهواه ، ولياليه . . . فإذا عينه تغيم . وإذا كفه تنبسط . وإذا محياه الذى حفه شحوب الألم ، ورهقته دكنه الخيانة قد صفا ، وتبلج ، وأضاء . . .

وسمعه حينذاك صحبه يهمس ، وهو ينجوه عنهم ، فى جنة الذكريات :

« لهفى على الزمن ، الذى
ولى بهجته ، القصير
قد كان يونقنى الهوى
ويقر عينى بالسرور
إذ نحن خلان الهوى
ريحاننا عبق العبير

وغناؤنا وصف الهـوى
نلتـــذ بالحب اليسير
وحديثنا . . . . . »

غير أنه لم يتم حديثه . . .

عاد من الغفوة الحالمة ، ومن جنة الذكرى ، إلى عالم الناس . . . وبدأ جبينه يتعقد بالهم ، وعينه تلتهب بحزنه ، وثغره الضاحك يغير عليه العبوس . . . ومع ذلك فقد وسع قلبه أن يطوى العمر كله بما فيه فى لحظته هذه .

يهتف بزرياب .

« أبا الحسن . . . أما حديث تحدثنيه ؟ .. »

ويمد عينه إلى الظلمة التى تسترت بها صاحبته ، ثم يقول :

« من المشرق هات . . . »

عندئذ تغنت قلم :

« وإنى لأرعى قومها من جلالها
وإن أظهروا غشا نصحت لهم جهدى
ولو حاربوا قومى لكنت لقومها
صديقا ولم أحمل على قومها حقدى »

فهمس وهو ناكس الجبين :

« وأرعاها أيضا ، ولو حاربتنى يا قلم ! ... »

« الرسوم بريشة الفنان أحمد الطويل »

PJ
7804
M28
Y3